

حدث في باريس
أحمد عطية الله

احمد عطية الله

حدث في باريس

١٩٣٨ — ١٩٤٢

الناشر
مكتبة دار الكتب الأهلية
بميدان الأوبرا بمصر

مايو ١٩٤٣

كلمة المؤلف

وضعت بعض فصول هذا الكتاب فى أخريات عام ١٩٣٨ عندما كنت فى باريس ، على انها جزء من كتابى « خريف فى باريس » بيد أننى عندما أعددته للطبع بعد سقوط فرنسا ، وجدت أن هذه الفصول التى كتبت فى المساء الأخير لدخول فرنسا الحرب ، أصلح ما تكون مقدمة لكتاب يصور قصة باريس منذ أسبوع ميونخ المشهود ؛ معتمداً فى رسم صور هذه القصة على مشاهداتى الشخصية وعلى مشاهدات بعض الكتاب الفرنسيين والانجليز والامريكيين الذين اطمأنت نفسى إلى مذكراتهم . ولاشك عندى فى أن هذه الفصول المؤلفة أو المقتبسة منها ، سوف ترسم صورة حقيقية لما « حدث فى باريس » إبان هذه الفترة الخطيرة التى مرت على العاصمة الفرنسية .

أ.ع

بقلم المؤلف

١ ــ لندن	صدر فى عام	١٩٣٤
٢ ــ برلين	» » »	١٩٣٦
٣ ــ حدث فى باريس	» » »	١٩٤٣
٤ ــ على الدانوب	» » »	١٩٣٩
٥ ــ يوم فى أوربا	» » »	١٩٣٧
٦ ــ القاموس السياسى	» » »	١٩٤١

مؤلفات علمية

٧ ــ بسائط علم النفس	صدر فى عام	١٩٣٢
٨ ــ دائرة معارف التربية	» » »	١٩٣٣
٩ ــ تقويم التعليم	» » »	١٩٣٤
١٠ ــ لعب الأطفال ومكانتها فى التربية .	» » »	١٩٣٢
١١ ــ الطفل الشاذ	» » »	١٩٣٣

مؤلفات أخرى

مكتبة الأطفال وتحتوى على ٢٦ كتابا

الاهداء

الى عميد الأدب العربي

الاستاذ الدكتور طه حسين بك

فصول الكتاب

صفحة



سفير فرنسا يترك دار المستشارية فى برلين

ظلام في الظلام

اليوم الثالث عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٣٨ .

والساعة الثالثة أو نحوها ، من الصباح الذى لم يتفتح بعد .

وكان القطار السريع قد شارف باريس أو كاد ، وإذا به يتمهل ، وإذا به يقف .

وإذا بالفتاة الانجليزية التى تمددت فى شبكة الامتعة فوق رؤوسنا تتحرك ، وتسأل أين هى ! ولم تكن مدفأة العربة لتبدد البرد فى تلك الساعة من الفجر ، ففتحنا النافذة نبحث عن بائع القهوة الذى يثب من الظلام عادة فى مثل هذه الساعة . ولكنه لم يكن هناك ، ولم تكن هناك محطة تبدد انوارُها عتمةَ الهزيع الاخير من الليل .

ثم برز لنا وجه حارس من حراس السكة الحديدية منعكسا فى ضوء المصباح الاحمر الذى كان يحمله ، وصاح بنا « أن

أطفئوا الأنوار ، واسدلوا الستائر ! ، كان كمعلم من الطراز القديم تعوّد أن يأمر دون أن يُسأل عما يفعل . فأظلمنا العربة الا من النور الأزرق الباهت ، وأرخينا الستائر .

استيقظ النائم منا ، وتنبه الغافل ، وراح كلٌ يسائل الآخر : ولماذا ؟ وسمعنا جدل بعض السيدات مع ذلك الحارس فى الديوان المجاور . وكان عليه ان يجيب ، وأن يقول شيئا ، انها غارة جوية ، لقد أغار الالمان . . ! ،

قال ذلك بصوت كأنه احد رجال الاعمال ، يوضح حقيقة لاتحتاج الى ذكاء او فطنة ، او الى رغبة فى اقناع سامعيه .

ولكن ؛ أمن الجائز ان تنعقد سحب الحرب فى دنيا السياسة الاوربية فجأة مابين المساء والفجر ؟ لقد تركنا الكانبير فى مرسيليا فى مساء امس كأبهج ماترى العين .. نعم إن مسألة السوديت قد احتلت مكانا فى السياسة الدولية ، ولكن متى كانت اوربا خلوا من المشاكل ؟ ويا ترُى هل اصبح اولئك الالمان، كبعض قبائل التتر او الهانز القديمة تغير على جيرانها اذا لم تجد ماتقتل به وقت فراغها ؟

ثم إنى نظرت حوالىَّ فى ضوء ذلك المصباح الأزرق الخافت ، فألفيت الفتاة الانجليزية تستعد للنوم من جديد ، ورأيت الشيخ الفرنسى يفرك راحة زوجته العجوز ويبادلها النظرة الحيرى ، وكأنما يتساءلان : هل قدّر لهما ان يشهدا حربا جديدة ! لقد مضت عشرون سنة كاملة منذ أن هنئا بالسلام فأمنا أحداث تلك الحرب . أقدّر لهما ان يشهدا حربا ثانية أشد فتكا ودمارا ، ولم يعد مقامهما فى هذه الارض الا يسيرا !

ووجدت صديقنا المصرى يكلّم نفسه ، وكأنه يقنعها بأمر من الأمور . كان ذلك التاجر يهبط اوربا للمرة الاولى ، وهاهوذا فى طريقه الى أين ؟ الى ايجر فى بلاد السوديت نفسها ، تلك المدينة المجهولة التى وثب اسمها الى صدور الصحف فى هذا الاسبوع ! وان كان لأحد ان يفزع ، فهو هذا الرجل الذى يسير الى البودقة وهو غير مسلح حتى بلغة تلك البلاد .

* * *

ثم سار القطار المعتم فى دهاليز الظلام ، كحية سوداء تسرح فى كهف أشد سوادا .

واخذت أفكر فى هذه البقعة من ارض فرنسا التى تشرف على الراين افتن انهـار الدنيا ، هـذه البقعة التى لم تنفك ترتوى بدماء ابنائها جيلا بعد جيل . تذكرت اننا نسير وخط ماجينو الذى قيل إنه أمنع حصن شـيده العلم :

وتذكرت ان فى هذه البقعة كان صراع الجبابرة حول اشتراسبورج وسيدان وميتز منذ سبعين سنة ، تخيلت نابليون الثالث وهو يسلم سيفه إلى بسمارك ، وتذكرت بيزان، ومكماهون ثم مولتكه ، كان ذلك منذ جيل مضى .

ثم استعرضت صور المارن وفردون ، وتذكرت فوش ، وجوفر ، وبيتان ، كان ذلك منذ عشرين سـنة . وأخذت أفكر وأتخيل ، الى ان تعبت من استرجاع تواريخ السـنين واسماء الرجال والمواقع : تلك التى لم تحتل مكانها فى التاريخ الا بالدماء . .

* * *

ثم اصبحنا فى باريس

وهرولت إلى بولفار سان ميشـيل لأتناول قدحى الاول

من القهوة .

ثم إننى نمت ذلك اليوم ملء العين ، وبدت باريس فى المساء كالعروس المجلوة ، فاخذت اطوّف حول بلقاراتها الليل بأكمله ، كأنني اقرأ كتابا قديما ، استعيد حلاوته بالنظر إلى عناوينه .

كانت مطاعم مونبرناس تفيض أنسا وبشرا ، وكانت مراقص مونمارتر بهيجة صاخبة ، وكان ضيوف باريس يملأون منتديات الشانزليزيه ، حتى تحس بأنك تخطر فى قلب الدنيا جميعها .

وفى هذه الدنيا السالية اللاهية ، نسيت حكاية القطار ، بل استحالت الى حلم بعيد معتم . .

سحاب

« استحالت مسألة السوديت فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٣٨ مشكلة أوربية عند ما أعلنت ألمانيا عزمها على ضمها إلى الريخ، وأجابت تشكوسلوفاكيا على ذلك باعلان التجنيد العام، معتمدة فى ذلك على تصريح فرنسا بتقديم المساعدة لها فى حالة الاعتداء عليها »

أصبحنا اليوم[1] ولا حديث فى باريس الآن عن الحرب، ولا أخبار فى الصحف الآن عن الحرب.

وكان أول مَن فاجأنى عندما خرجت الى الشارع جمع غفير من الرجال والنساء حول كشك بائع الصحف أمام محطة مونبرناس. كان التهافت عجيبا! حتى أن الذى كان يستولى على نسخة من جريدة (البارى ميدى) لا يعرف كيف يخرج من

---

(١) ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٨

وسط المتزاحمين . لقد كان هذا المنظر صورة سريعة لما تحس به باريس اليوم من لهفة وجزع .

ليس لك إلا أن تعجب من قوة الصحافة ، لقد أصبحت كل شيء فى هذه الأزمة ، لقد أصبحت أشد ضرورة من الطعام ! ففى كل نصف ساعة يصدر ملحق جديد من جرائد باريس ويستقبله آلاف من الملهوفين ، الذين ينتظرون أخباراً جديدة عن المريض الذى لا يعرف الا الله هل يعيش أو يموت . وعند صدور كل ملحق يتجدد الأمل وينتظر الباريسيون الأعجوبة التى قُدر لها أن تسكت هذه القلوب الواجبة المضطربة.

أعلن التجنيد العام فى فرنسا منذ أمس الأول ، أعلن للمرة الثالثة منذ أيام نابليون ؛ أعلن فى حرب السبعين ،وكانت المانيا الخصم المقصود ؛ وأعلن فى الحرب العظمى، وكانت المانيا العدو المنازل ، ثم أعلن فى أمس الأول . .

أعلن التجنيد العام فى نشرات كبيرة علقت على جدران الأبنية العامة . نادت فيها فرنسا أبناءها دون أن تدعوهم فرداً فرداً ، فكان على كل فرنسى أن ينصت الى نداء وطنه ، وكان عليه

أن يجيب النداء . ولم يتفتح الصباح حتى كان كل جندى تحت لوائه .

وامتلأت شوارع باريس بقوافل السيارات الحربية الثقيلة، التى كانت تنحدر إلى الضفة الغربية للسين فتهز بولڤار سان ميشيل هزا ، وهى فى طريقها إلى الحدود الشرقية. وجلس جنود «اليوم» بملابسهم الجديدة ومعداتهم اللامعة يقرأون آخر الأخبار ، ومن هو ذا أحرى من هؤلاء الجنود بقراءة أخبار الحرب والسلام ، وهم يسيرون خفافا إلى المذبحة ؟ وهكذا اجتمع لفرنسا ما بين يوم وليلة مليونان من الرجال كما قيل .

وكانت محطات باريس فى هذين اليومين مشهداً رائعاً ، مشهد أولئك الشبان الذين كانوا يعملون ويلهون حتى بالأمس فى باريس ، وهم يودعون الأمهات والصديقات . ولم تكن محطات باريس وحدها مسرحا لقبلات الوداع ، بل كانت المطاعم والحدائق والشوارع غاصة بهؤلاء الشبان والصديقات ، وقد حمل كل شاب حوائجه فى حقيبة رخيصة من الورق المضغوط .

وأخذت باريس تقفر من زائريها كما أقفرت من أبنائها ،

فمحطة الشمال وسان لازار كانتا غاصتين بالعائدين الى لنـدن .
ونادى السـفير الأمريكى فى باريس خمسـة عشر ألف مواطن
أمريكى يجوبون خلال فرنسا : « أن عودوا الى بلادكم فلم تعد
باريس ملهى ولا مرقصاً ، ولم تعـد نيس ومونت كارلو ، ولم
يعد « الـكوت دى زور » عشاً هادئاً وادعاً ! »

ولم تكن أخبار الصباح مطمئنة ، وكيف يدعو الى
الاطمئنان أن تقرأ فى جريدة النيوز كرونكل التى وصلت اليوم
بالخط العريض « التجنيد العـام فى الأسطول البريطانى !» حتى
انجلترا التى علمتنا الحيطة والروية قد نفضت عنها تلك الرزانة
تحت هذا الخطر المحدق !

وفى طريقى من مونبرناس الى مونمارتر ، رأيت كيف كان
يعيش أهل باريس اليوم على فتات الأخبار، التى كانت تتكاثف
فى كل دقيقة ؛ رأيت العمال فى فترة الغـذاء متجمهرين فى أركان
الطرقات يقرأون آخر الأنباء ، رأيت قارئين يصطدمان أمام
حديقة الـكسمبورج ، وكان كل واحد منهما قد غرق فى صحيفته
حتى لم يعـرف موضـع قدمه ، رأيت الباريسيات وقد تركن

أحاديث الأزياء ومساخر الحب وانصرفن الى السياسة. والباريسى الذى عرفته يستمتع بجلسته الى المائدة) رأيت الصحيفة قد وجدت طريقها الى قدح الحساء الذى قُدّم له، فأكل طعامه بارداً!

ووقفت عند دار جريدة «سى سوار» وقد تجمع السائرون أمامها يقرأون أحدث الأخبار، التى نشرت بحروف كبيرة على نوافذ البناء. ورأيت سيدة تقود سيارتها وبجانبها طفلها، رأيتها تقف فى وسط شارع «٢٤ سبتمبر» المزدحم لتقرأ ماجدّ من هذه الأنباء.

وكان كلما اشترى أحد ملحقاً جديداً تجمع حوله أربعة من القراء المتطوعين. واذا سار فى عرض الطريق، تبعه واحد على الأقل، وقد مد عنقه على كتف صاحب الجريدة دون استئذان.

وكأن الناس فى باريس كانت ترتقب مباغتة الحرب أو إحدى مفاجآتها؛ إذ أن قليلا ممن يجوسون اليوم خلال شوارعها قد عرفوا باريس فى محنتها الماضية؛ إنها وجوه جديدة سمعت كثيراً عن مفاجآت الحرب ولم تجربها.

ففى بولفار الكابوسين وقف جمع من السائرين يحدقون

النظر إلى العمال وهم ينزعون بعض أحجار الرصيف لاصلاحه ، وقفوا ينظرون وكأنهم يبحثون عن سر مكتوم ، وكأن وراء هذه الأحجار غرضاً مبيتاً ! أليست لندن اليوم ، قد شمرت عن ساعدها تحفر الخنادق والمخابىء الأرضية فى حدائقها ؟ ولِمَ لاتكون باريس تستعد بدورها !

ولكن بصيص الأمل بدا يتسرب إلى نفوس الباريسيين عندما أمسى المساء : فقد قبل هتلر أن يؤخر نذيره إلى تشيكوسلوفاكيا يوما كاملا ، وأن يتقابل غداً مع موسيلينى وتشمبرلين ودالاديه فى ميونخ : فاحس الناس بشىء من الراحة وأخذت مجتمعات المقاهى والأندية لونا غير ذلك الذى كان يغمرها فى الصباح .

* * *

وعندما عدت فى منتصف الليل إلى الفندق ، أحسست بأن شوارع باريس أمست مظلمة بعض الشىء ، أحسست بأنها خفتت أنوارها، أو كأن حجباً كثيفة أسدلت على مصابيحها : لقد سرت عدوى الشك فى النفوس ، حتى نفوس الغرباء من غير أهل باريس .

العاصفة

« رغبة فى تسوية الخلاف بالطرق السلمية حول مسألة السوديت ، سافر المستر تشمبرلين رئيس الحكومة البريطانية فى منتصف شهر سبتمبر الى برشتجادن حيث قابل الهر هتلر ، ثم ثنى زيارته بأخرى . وانتهت المحادثات بتنظيم مؤتمر رباعى فى ميونخ . . . . »

أنحن على أبواب حرب ؟

أنحن كالمريض الذى يئس منه طبيبه ، وهو لا يعرف أن حتفه أصبح تحت قدميه ؟

أهذا البولفار العظيم الذى يطفح بالسائرين والسائرات تحت مطر هذا اليوم قد يصبح بعد أسبوع هدفا للقنابل ؟

هكذا كنت أفكر اليوم ، وهكذا كان يفكر معى هؤلاء الباريسيون وهم يتصفحون عشرات الجرائد والملاحق المتوالية ،

كأننا فى مركب غريق ينتظر أصحابه رسالة النجاة فى كل دقيقة .

ولأول مرة جلست الى صاحب الفندق فى حجرته ، وكان حديثنا القصير المبتور عن المطر ، ثم عن السياسة والحرب . ثم جاء نزيل امريكى فقطع علينا حبل الكلام ، ليتحدث الينا بخليط من الانجليزية والفرنسية ،عن أمريكا ،وعن روزفلت ، وعن فرنسا . وكان الفرنسى صاحب الفندق يؤمن على كلامه بحماس بالغ ، اشرك فيه رأسه ويديه وقدميه . ثم اذا انتهى ، اندفع بجملة فرنسية طويلة لا أظن ان صاحبنا الامريكى كان يعقل منها الا اسماء المعرفة ؛ من سياسة ، وأمكنة ، وبلاد .

ثم اننى خرجت ،وأخذت أطوف بين الشوارع لأرى كيف تحس باريس ، وهى فى انتظار العاصفة . وكان المطر لا ينقطع وكانت الحياة متفجرة كأشد ما تكون شوارع باريس يقظة ، كأنما أهلها على موعد أزفت ساعته ، فكانوا يتدفقون من مخارج المترو الدفيئة الى الطرقات المغسولة بالمطر ، كجنود يفزعون من خنادقهم عند سماع إشارة الهجوم .

ثم إنى انتهيت الى شارع الريفولى عند اللوفر ، ومن ثم طفقت اتنقل بين المتاجر المطلة على حدائق الكونكورد من مكتبات ومن مطاعم وفنادق ومخازن للعطور والزينة ، ثم عرّجت على ميدان فندوم ، فالاوبرا .

وكأنما سحب الحرب المتكاثفة قد انقشعت ونحن فى قلب باريس ، فلا تكاد تحس بأن أحدا من هؤلاء السائرين فى شارع الروايال أو بولفار المادلين يشعر بأن كارثة قد تنزل ما بين صبح ومساء على هذا العالم . وها هن أولاء بائعات الزهور يعقدن باقات البنفسج فى انتظار الخارجين والخارجات من خلف أبواب « الكافيه دى لا بية » المغلقة .

* * *

وفى مقهى جانبى يطل على بولفار مونمارتر جلست أقرأ صحيفة « الديلى اكسبريس » ، وأمعن الفكر فى خطاب هتلر الذى هز باريس فى الليلة الماضية ، والذى جعل أحاديث السياسة تطغى على كل حديث : لقد ملأتنى هذه الخطبة حماسة ، إذ كانت بلاغة الخطيب ، واعتداده بنفسه ، وبحق بلده ، لا يدع مجالا لتردد القارىء !

فما بال اولئك الذين سمعوا الخطاب وهتفوا للخطيب ؟

* * *

أمست باريس الليلة البارحة ساهرة تنتظر ماذا يقول الفُيرر ؟ وجلست فى مقهى الديبوا فى الحى اللاتينى حتى الساعة العاشرة ، عندما صدر ملحق لجريدة البارى سوار بترجمة هذا الخطاب الذى سمعته برلين قبل ذلك بساعة واحدة . وكان نداء بائع الصحف مزعجاً مقبضاً ، حتى هزت الجالسين فى المقهى رعدة عصبية ، وساد السكون بضع ثوان قبل أن يجرؤ جالس على شراء نسخة من تلك الصحيفة ، كأنها دقيقة الخشوع على قبر ميت عزيز .

* * *

كان أمس من الأيام التى يصنع فيها التاريخ ، وكان الهواء يحمل الأخبار ، ويحمل أصوات الخطباء ما بين الدنيا الجديدة والقديمة ، وكان الهواء يحمل رجال السياسة أنفسهم ، كأنما هذا النزاع حول تراب الأرض قدجعل مقام رجال السياسة على ظهرها المحترق مستحيلا . فالتمسوا الهواء يتصايحون فيه ،

ويصاولون فيه بعضهم بعضا .

فى الصباح الباكر سافر جاملان رئيس أركان الجيش الفرنسى إلى لندن .

وفى منتصف الساعة التاسعة من الصباح نفسه ، بعث روزفلت برسالة إلى الهرهتلر .

وفى الساعة العاشرة ، اجتمع مؤتمر من الانجليز والفرنسيين فى العاصمة البريطانية .

وفى الساعة الثالثة عاد المسيو دالاديه والمسيو جورج بونيه إلى باريس .

وفى الساعة الثامنة ألقى هتلر خطابه المنتظر .

ولم تمض ساعتان حتى اجتمع مجلس الوزراء البريطانى فى جلسة سرية فى قصر بكنجهام .

ومنذ ساعة من الزمان ، اجتمعت الحكومة الفرنسية فى قصر الايلزيه تطلب الرشاد من أمرها .

* * *

وفيما أنا جالس فى ذلك المقهى وقفت سيارة للأجرة ،

تركها ثلاثة من الألمان الى مقصف المقهى لاحتساء شيء من القهوة ، وقفوا بيننا كالعمالقة بمعاطفهم التى لم يبلها المطر ، وبأثوابهم الأنيقة التى عُنوا بتنسيقها كأنهم على موعد ، ودفن كلُ واحد منهم حقيبته الجلدية تحت إبطه ، تلك الحقيبة التى التى لا تفارق الألمانى ولو كانت خالية إلا من صحيفة الصباح .

ورفع الجالسون أعينهم صوب الداخلين ، الذين كانوا منصرفين إلى حديث ، ليس هو بالهزل ، ولا هو بالسر . كانوا يتكلمون بثقة وتؤدة ، كأنما ليس فى وجودهم بين هؤلاء الفرنسيين فى ذلك اليوم أمر يدعو لدهشة أو عجب .

وأخذ الجالس إلى جانبي يمعن النظر فى وجوههم التى كانت تفيض حيوية ، كأنما يحاول حل مسألة حسابية أو كشف سر من الأسرار .

* * *

ثم خرجت أدور دورة أخرى فى الشوارع .

وفى «جاليرى لافاييت» نسيت أخبار الحرب ، نسيتها فى هذا الجو المعطر المتلألىء بآلاف الأضواء .

موكب المشاعل

« فى ٢٩ سبتمبر وقعت اتفاقة ميونخ، التى اشتركت فى إمضائها كل من ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا . واعترف فيها بحق ألمانيا فى ضم منطقة السوديت . وأصبح تشمبراين كما أصبح دالاديه بطلين من أبطال السلام . »

احتفلت باريس اليوم (*) بعيد السلام ، فقد نجت أوربا ونجا العالم من شر حرب لاشك كانت واقعة ، حتى تدارك أمرها أربعة رجال اجتمعوا امس فى ميونخ .

احتفلت باريس بعيد السلام فى ظلام دامس ، فكان أعجب عيد عرفته باريس مدينة النور . وأصبح دالاديه بطلا قوميا هتف بحياته مائة ألف فرنسى تجمعوا فى طريقه إلى قوس النصر ، لكى يحرك الشعلة على قبر الجندى المجهول .

وعند ما وصلتُ فى العشية الى حديقة اللوفر وتطلعت الى

(*) أول أكتوبر سنة ١٩٣٨

ميدان الأتوال، استحالت باريس فى نظرى برية مجهولة، واستحال قوس النصر وهو رابض على ربوة الشانزليزيه فى ذلك الظلام العميق، إحدى قلاع الأمراء فى القرون الوسطى، وقد أضاءته آلاف من المشاعل المتوهجة، واختلطت حوله نغمات الموسيقى بصياح الهاتفين.

* * *

كان تاريخ هذه الأيام الثلاثة لحياة رجل حكم عليه بالإعدام، ثم عفى عنه وهو فى ظل المشنقة. توالت حوادثه وتتابعت بسرعة عجيبة، حتى إن المؤرخ ليسجل فى كل دقيقة من دقائقه حدثا جديدا.

وكانت عواطف أهل باريس كامواج البحر، تعلو ثم تهبط ثم تعلو. وكان اسم ألمانيا حتى الأمس كالكابوس على صدور الباريسيين. أما اليوم فقد فعلت فيهم مظاهر الحفاوة الحارة التى لقيها الرئيس دالادييه من أهل ميونخ، كما سروا بمداعبة المارشال جورنج له؛ فما أسرع القلب الفرنسى الى الرضى والى السخط!

فني ظهر أمس اجتمع آلاف من أهل ميونخ أمام الفندق الذي يقيم فيه الرئيس دالاديه تنتظر بفارغ الصبر ظهوره ، وهي تصفق هاتفة : « نريد أن نرى المسيو دالاديه » . وعندما وصل الى المطار شق طريقه بين فرقة الشرف التي اصطفت لتحيته ، وكان في وداعه الهر فون ريبنتروب ، وكان الرئيس بادي الغبطة ، إذ نقل عنه رجال الصحافة قوله « انني ابتهجت عند ما رأيت انه ليس في المانيا شعور بالكره أو العداء نحو فرنسا ، وانني ليسرني أن أضع قوتي في خدمة هذا التفاهم حتى تينع ثمرته . . . »

وفي مطار بورجيه ، احتشد ألوف من الباريسيين لتحية رئيس الوزارة ، الذي عاد اليهم حاملا رسالة السلام . ومن هناك سار الى وزارة الحربية بصحبة المسيو بونيه ، تتقدم موكبه سيارة جاملان رئيس أركان الجيش ، بينما كانت تهتف الجماهير « لتحيي فرنسا ، ليحيي السلم ، ليحيي دالاديه ! »

وفي الساعة السادسة من ذلك المساء اجتمع مجلس وزراء فرنسا برئاسة البير لوبران رئيس الجمهورية ، فأعرب عن شكر البلاد للمسيو دالاديه لوطنيته الصادقة ولشجاعته في سبيل

مصلحة فرنسا ، وفى سبيل السلم العالمى . . . !

* * *

آلاف من الرسائل المؤثرة ، آلاف من برقيات الشكر ، آلاف من باقات الزهور ، وجدت طريقها هذا الصباح إلى وزارة الحربية ، عربونا للحب والتقدير الذى تحمله فرنسا لرجلها الأول دالاديه . ثم بدأت بشائر السلم تتفتح ، فقد كان أول ماعُنى به الرئيس ، تسريح قوات الاحتياطى التى أجابت نداء الوطن بالأمس ، عند ما كان الوطن فى خطر .

ولما أرخى الليل ستوره على باريس ، وكانت قد أطفئت آلاف المصابيح حزنا على السلام المنكوب ، سار دالاديه المحارب القديم إلى قبر الجندى المجهول تحت قوس النصر ليحرك الشعلة . وكانت تتدلى من قوس النصر راية كبيرة مثلثة الألوان ، وكانت تضيئه آلاف من المشاعل المتوهجة وكان يشهد هذا الموكب العجيب مائة ألف باريسى !

وبعد أن حرك الرئيس الشعلة . أثبت على الكتاب الذهبى، وهو مهتاج العاطفة والحس الجملة الآتية : « فى أول أكتوبر سنة

١٩٣٨ حرك ادوارد دالاديبه رئيس الوزارة ورئيس الدفاع، الشعلة باسم جميع المحاربين القدماء »

عند ذلك عزفت الموسيقى نشيد المارسيلييز وصاحت ألوف من الخناجر « شكراً يا دالاديبه !» وهتفت «لتحي فرنسا !»

* * *

ثم استيقظت باريس فى الغد من أفراحها ، وقد انفض العرس وتفرق الأحباب . وكان كل باريسى يشعر بالسعادة لأن الكارثة لم تقع ، ولكن الوساوس كانت تضعضع بهجة ذلك السرور ، إذ كانوا يرون فى باريس أن تشيكوسلوفاكيا راحت ضحية ، وأن ثمن هذا السلام كان عزيزاً !

وخرجت جريدة «الچور» عن الصمت ، وأفصحت عن هذه الوساوس حيث كتبت تقول «لقد اضطررنا إلى إختيار طريقين لا ثالث لهما : إما الحرب التى لم نعد لها العدة ، وإما الحل المبنى على التعقل والإذعان للضرورة القاسية ، ولو دفعنا فى سبيله ثمناً غالياً . ومن العبث أن نحاول كتمان هذه الحقيقة ، فإن هدأة النفوس لن تطول كثيراً ، فعلينا أن نستفيد من هذه العبرة

لنلم شعثنا ولكى ننظر من جديد فى بناء نظامنا الداخلى ، وعلينا أن نتوقع من المفاجئات ما هو أشد هولا مما وقع بالأمس .

٭٭٭

وكانت الأخبار من الجانب الآخر للمانش ، مزيجاً من الابتهاج والشك : « فدف كوبر » وزير البحرية ، مكث اليوم فى حضرة الملك نصف ساعة بعد أن قدّم إلى المستر تشمبرلين أستقالته التى يقول فيها « إنه ليحزننى أن أعتزل منصبى فى ساعة انتصارك العظيم للأسباب التى تعلمها ، والتى أعتزم أن أبديها للمجلس ، إذ أجدنى شديد الارتياب فى السياسة الخارجية التى تسير عليها الحكومة الحاضرة . . »

ولكن الملايين من أهل لندن ، والملايين من أهل باريس كانت ترى أن تشمبرلين قد أنقذ العالم ؛ وأنه بحق جدير بجائزة نوبل للسلام ، التى منحت له بالأمس . وتنافست صحف باريس فى تمجيدها لعمل تشمبرلين والمسيو دالاديه ؛ ففتحت « البارى سوار » إكتتاباً لتمنح رجل السلام قطعة من أرض فرنسا ، لتمنحه بيتاً صغيراً منزوياً بين غابات الجنوب يطل على الريفيرا ،

حيث يصيد هذا الشيخ على درجاته السمك فى سلام !

وطلعت جريدة «الاوفر» على قارئاتها تطلب منهن المساهمة فى تقديم هدية تذكارية لزوج المستر تشمبرلين تقديراً لما قام به قرينها فى سبيل السلم ، وافتتحت الجريدة الباريسية الاكتتاب بخمسة وعشرين ألف فرنك .

هكذا كانت تحس باريس فى يوم السلام .

وبعد أيام سوف تستقبل باريس الآلاف من أبنائها وأطفالها .

ويرفع الحداد عن مصابيح باريس ،

وتسير باريس سيرتها الأولى .

* * *

وفى هذه الايام أصبحت كبعض المعزين فى مأتم باريس ، أصبحت ذلك الضيف الذى ألفى اهل الدار قد أصمتهم الفاجعة عن أن يخفوا لاستقباله . وهكذا صمت باريس عنى الأذن ، وقبضت عنى كفها وراحتها ، حتى شقشق ذلك الأمل .

وفى الغد هرولت الى ميدان أيينا حيث الارسالية المصرية سائلا عما يكون من أمر كتب التوصية التى احملها ، وقد أغلقت

الدور والمتاحف التى جئت من أجلها ، والتى قيل إن تحفها وطرائفها قد نقلت الى بعض الكهوف بعيداً عن باريس .

* * *

وهناك التقيت بعميد الأدب العربى (*) وسفير الثقافة العربية الاسلامية فى الغرب . جلست أنصت اليه يتكلم عن شئون السياسة الأوربية ويشخص داءها ودواءها ، ويحلل شخصيات رجال السياسة الفرنسية بأسلوبه التهكمى المرير ، لأن حبه لفرنسا نفسها جعله يرى كل محاولة من جانب هؤلاء الزعماء هى دون القليل فى سبيل خلاص « ماريان » المريضة .

ثم انتقل بنا الى الكلام عن الأدب والثقافة ، فكان فى كل ما تحدث به جديد طريف . تذكرت فى تلك الساعة بوزويل عند ما اجتمع بالدكتور جونسون فى شارع جريت كوين فى عام ١٨٦٣ للمرة الأولى ؛ وقد جاء بوزويل من مرتفعات اسكتلندا ليفرض صداقته على دكتاتور الادب

(*) الأستاذ الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول إذ ذاك

الانجليزى فى عصره . وكان جونسون مسترسلا فى حديثه كالبحر ، فلم يجد مهلة ليدير وجهه نحو هذا الدخيل ، ولم يجد بوزيل غضاضة فى أن ينصرف عنه « الدكتور العظيم » كما كانوا يدعونه ... وهكذا انصرف عنى عميد الأدب العربى . من أنا ؟ ومن أين قدمت ؟ وماذا أنا فاعل فى باريس ؟ ما كان ليرهق نفسه بالسؤال . ولكنه كان يفيض علىّ بالاجابة إذا سألت ، ويوضحنى إذا استوضحته شيئاً ، أما عن السائل فلم يكن يعنيه الأمر .

ثم سمعت بانه مدعو الى بعض العواصم الأوربية الكبرى بدعوة شخصية من وزير تربيتها . ثم سمعت رأيه فى اساليب توجيه التعليم فى تلك البلاد . لقد كان واثقا مما يقول ، واثقا من نفسه وشخصه ! فاحسست بالزهو ، احسست بالفخار بهذا السفير الذى جاء يغزو الغرب بمعرفته هذا الذى فرض دكتاتوريته الثقافية على القاهرة ، ثم على الشرق ، وهاهو ذا الغرب يسلّم له بحقه ، ويرضى بعمادته .

واذا كانت الدكتاتوريات فى السياسة تصيب وتفشل ، واذا كانت الامبراطوريات ترتفع وتسقط ، فان وزراء الثقافة يفرضون زعامتهم على الأجيال والعصور .

ضيوف باريس

«كانت باريس خلال هذه الأزمات مأوى لآلاف
اللاجئين السياسيين والمهاجرين الذين وفدوا من ألمانيا
والنمسا وبولندا ثم من تشكوسلوفاكيا ، ولكن
هؤلاء الضيوف كانوا نكبة عليها عندما حلت النكبة .»

فى ضحى اليوم السابع من شهر نوفمبر سنة ١٩٣٨ ، طرق باب المنزل رقم ٧٨ فى رى ديليل حيث تقيم السفارة الألمانية فى باريس ، صبى فى الثامنة عشر من عمره وطلب مقابلة السكرتير الأول للسفارة ليعرض عليه بعض الوثائق الهامة . وسمح الهر فون رات السكرتير الثالث للغريب بالدخول ، وما أن أرتج الباب من خلفه ولم تمض بعد ثوان معدودات ، حتى دوت فى المكان قرقعة خمس طلقات نارية .

وعندما فتح الحراس الباب المقفول ، وجدوا ذلك السياسى الشاب ملقى على الأرض وقد تلطخ وجهه وعنقه بالدم النازف ،

وهو يجاهد الموت المفاجيء جهاداً . وإلى جواره كان ذلك الغريب ، وهو ما فتيء يحمل مسدسه المدخن بين أصابعه .

كان هرشل جرنزبان القاتل السياسى، بولونياً عاش فى المانيا، ونزح فيمن نزح من اليهود إلى باريس . وكانت حوادث ابريل السابقة حين دخل الألمان فينا وشردوا المئين من يهودها ، كانت تلك الحوادث حافزاً لهذا الاسرائيلى لينتقم لجنسه فى شخص ممثل الدولة التى ضربت على أهله الذلة والمسكنة خلف حدودها.

روعت باريس للنبأ ، وثار هتلر له ، وهاجت المانيا من أقصاها إلى أقصاها تطلب الانتقام . ثم أرسل الفيرر طبيبه الخاص الدكتور براند إلى باريس ، ثم تبعه الأستاذ ماجنس مدير مستشفى ميونيخ ، ونقل الدم إلى الجريح أربع مرات ، ولكن الموت أعجز الطب والأطباء فمات الجريح ، وشُيع فون رات فى موكب حافل تقدمه المسيو بونيه وزير الخارجية ممثلا لحكومة فرنسا .

وكان مقتل فون رات كالسحابة السوداء ارتفعت فى سماء برلين، ورفرفت فوق فينا وامتدت ألسنتها صوب ليبزج وفرانكفورت

وعشرات المدن الألمانية الأخرى ؛ لقد كانت تلك الطلقات الخمس نقمة على رؤوس آلاف من اليهود ، الذين أراد جرنزبان أن ينتقم لهم .

فبعد أيام وقف على حدود المانيا مائة وخمسون ألفا من اليهود يطلبون النجاة ، ولكن إلى أين ؟ لقد امتلأت عواصم أوربا بهؤلاء اللاجئين ، فأقفلت أبوابها إلا على شروط وقيود. وأقيمت المظاهرات فى حديقة هايدبارك بلندن ، بيد ان أبواب دوفر ما فتئت موصدة إلا عن القليل من هؤلاء اللاجئين .

بيد أن الطريق إلى باريس مفتوحة دائماً . . . .

فهؤلاء الضيوف يطرقون أبوابها تارة باسم الانسانية وطوراً باسم الحرية والإخاء ، وأخرى باسم القانون الدولى . وإذا أقفلت باريس أبوابها لم يعجز هؤلاء الشطار عن تسلق الجدران والدخول من النوافذ والكوات ، يزورون الوثائق والجوازات ، ويدفعون الرشوة دراهم معدودات . .

وهكذا كانت باريس وهى على أبواب أشد بلية نزلت بها منذ سبعين سنة ، توسع الطريق لآلاف اللاجئين والمهاجرين من

كل أمة وجنس وملة . وما أن يهبط اللاجىء الجديد باريس، حتى يذوب بين أهله وطائفته فيها ، ولن تصل اليه يد القانون إلا إذا زلت قدمه وتلقفته أذرع رجال الشرطة .

وعند ما دقت أجراس ميونخ فى آخر شهر سبتمبر ، كانت حدود فرنسا تضم مليوناً من الايطاليين وآلافاً من الأسبان والبولنديين والروس والبلقانيين والأرمن واليهود المهاجرين ؛ من أولئك الذين جاءوا يطلبون السلام والأمان ، أو يطلبون اللقمة ، يطلبونها بالثمن الذى يُعرض عليهم وهم برعة التجار ؛ وقد تكون المساومة عن الأمانة الوطنية ، وقد يكون الثمن خيانة للعهد ونكراناً لجميل هذا البلد : الذى آواهم من بعد تشريد وأطعمهم بعد مسغبة، فتدفع فرنسا الثمن بالدم والكرامة.

. . .

فى ذات ليلة من ليالى شهر اكتوبر ، وقعت على ركب من هؤلاء المهاجرين فى ركن من أركان مقهى «الدوم» المشهور. كان هذا الركب بالصدفة من يهود فينا، الذين فروا إلى باريس بعد أن أعلن جوبلز على أهل فينا «أننا لا نحب اليهود ، وأن اليهود

لا يحبوننا ، لهذا سوف ندعهم يهاجرون من جوارنا إلى حيث شاءوا . . . »

وأخذت وجوه هؤلاء المهاجرين تظهر فى مقاهى مونبرناس وسان ميشيل ومونمارتر وميدان كليشى ، تلقاهم يجلسون فى حلقات يتهامسون ويتساءلون ويراجعون أوراقهم ، ويبيتون للمستقبل . .

واستحال الركن الذى انتحاه هؤلاء الضيوف فى مقهى « الدوم » مدينة المانية صغيرة ، لا تسمع فيها إلا تلك اللغة ، اللهم إلا بعض جمل عبرانية أو « ييدية » إذا أراد المتكلم التستر. ونثرت صحف فينا الأخيرة ومجلاتها على المقاعد والموائد . وتصدرت المكان سيدة امتلأت مرحاً وبهجة كأنها بروسية صميمة ، وما إن عرفتنى حتى سألتنى عما أحمل من طوابع للبريد ، إذ انها اتخذت من هذه الهوية تجارة لا رأس مال يعوزها ، ولا قيد فى ربحها ولا شرط .

وأكثر ضيوف باريس ، يعملون كهذه السيدة فى صناعات ومهن مجهولة الأصل ، يحوط بها السر ويكتنفها الغموض ،

ولكنها تدر عليهم الكسب حلالا وحراما .

- وما إن اكتمل الجمع وانتصف الليل ، حتى رأى منهم من رأى أن نقضى السهرة فى مرقص روسى يديره بعض اللاجئين من تلك البلاد . وضيوف باريس من لاجىء الروس أقدمهم تاريخاً وأعرقهم أصلا ، وإليهم يرجع الفضل فى خلق هذه التقاليد التى يجيدها اللاجئون جميعاً فى باريس . وأبرع خدعة نشرها هؤلاء الروس أنهم من أبناء الطبقة الأرستقراطية فى عصر القيصرية الذاهبة . ولكننا لو عددنا جميع هؤلاء الروس من سائقى السيارات إلى مديرى الأندية الراقصة ، لوجدنا أن نصيب باريس وحدها من أبناء روسيا القيصرية بضعة آلاف !

* * *

ثم دخلنا مكانا فى بولفار «بسكال» غُطى سقفه بخيمة أشبه شىء بخيام القواد فى القرون الوسطى ، ولا من حاجة اليها سوى أن تكسو المكان بروعة الماضى أو بروعة الشىء المجهول . وأبى أحد من رفقتى اليهود أن يخلع قبعته أو معطفه أو مايحمل من لفائف ، خوفا من أن يحتال عليها مخادع ، او ان يدفع اجراً لحفظها

وأجرى أحد الضيوف عملية حسابية ، أثبت بها أن من الاقتصاد أن تشترك الجماعة فى شراء عدد من زجاجات النبيذ توزع فيما بينهم ، على أن يدفع كل مساهم نصيبه من ثمنها ، وعلى ذلك وضعوا أمامى كأساً بقيت على حالها إلى آخر الليل . ثم أخذت الموسيقى تعزف مقطوعات المانية تحيةً للضيوف الذين راحوا يغنون جماعة ويرقصون جملة ، حتى بكى الشيخ الذى إلى جوارى ، وأخرج صورة زوجه وأطفاله ممن خلفهم فى فينا وطفق يعرضها علينا .

حتى إذا انتصفت الساعة الثالثة من الصباح ، بدأ الضيوف يتسللون أو يخرجون لحاجة من الحاجات . وما إن عزمت أنا وذلك الشيخ على الذهاب ، وأخرجت نصيبى من ثمن الشراب الذى لم أحتسه ، حتى طلب منا الخادم مئتى فرنك ، فأصابتنى الدهشة وأصاب ذلك الشيخ الذهول ، حين أيقن من أن رفاقه قد تحايلوا عليه وعلىّ .

ثم إنى أصررت على أن أدفع خمسة عشر فرنكا ، وأصر الشيخ على أن نبحث عن أولئك الهاربين ، وتطوع بعض السامعين

بالبحث عن أولئك الآبقين فى المقاهى المجاورة . وخرجنا إلى البولفار واحتدم الجدل والنزاع ، وأخذ بعض رجال الشرطة يقترب منا ، فاسرّ إلىّ ذلك الشيخ ان نهرب ،إذ ليس فى ذلك عيب أو ضير .

فتمهلنا قليلا ، ثم أسرعنا الخطى ، ثم هرولنا ، واختفينا فى الظلام . وكان الشيخ يلهث من العدو والفزع . حتى إذا انتهينا فى نحو الساعة الرابعة من الصباح إلى مكان أمين عند محطة مونبرناس أخذ رفيقى يتمتم كالحالم : « يا للشقاء وسوء الطالع ! لو أننى اقتدت إلى مخفر الشرطة إذاً لكنتُ فى الغد على الحدود الفرنسية !

هؤلاء هم ضيوف باريس فى محنتها النازلة .

آلاف من هؤلاء الغرباء من كل جنس وملة كانت تعج بهم باريس ؛ اختلط فيهم اللاجىء السياسى بالمحتال الماهر ، واندس فيهم الخونة ورجال الطابور الخامس، ينتهزون الفرصة للوثوب.

رسائل

« انتهت إتفاقية ميونخ بتمزيق تشكوسلوفاكيا
واحتلال المانيا لبوهيميا ومورافيا وأخذ
السياسيون ينظرون إلى المستقبل بعين التشاؤم »

(١)

من فرنسوا بونسيه ، سفير فرنسا فى برلين ، إلى جورج بونيه
وزير الخارجية الفرنسية :

برلين فى ١٩ اكتوبر سنة ١٩٣٨

« . . . بمناسبة سفرى من المانيا ، دعانى مستشار الريخ بعد ظهر أمس لرؤيته . ولم يكن ذلك فى برشتسجادن بل فى « وكر النسر » وهو الذى بناه على رأس صخرة ترتفع ٦٠٠٠ قدم ، وتشرف إلى مسافة بعيدة على الجبال التى تحيط بسالسبورج . وما عتمت المحادثة (التى كان يحضرها وزير الخارجية) ان اتخذت لونا خطيراً جذابا .

« ابدى الهر هتلر أسفه ، لأن الحوادث التى تبعت اتفاقية ميونخ ، زادت روح التوتر بين الدول الكبرى ، ولم تحقق آماله فيها . أما نحو فرنسا فكانت نواياه طيبة للغاية . إلا أنه من ناحية أخرى أكد بشدة بأن موقف بريطانيا نحو المانيا عدائى فى جوهره .

« وحاولت من ناحيتى أن أوضح وأن أصحح آراءه ، لا سيما عن الاتجاهات السياسية الشائعة فى كل من فرنسا وانجلترا ، بعد ذلك الخطاب الذى ألقاه أخيراً فى ساربروكن ، وبعد تلك الاتفاقية التى حفظت السلام فى اوربا ، ولكن بتضحيات باهظة .

« وصرح المستشار بصفة عامة بأنه مستعد لأن يبحث جميع الطرق والوسائل التى قد تؤدى إلى تصفية الموقف الراهن ، وإلى تمكين روح التفاهم التى سادت اوربا إبان إتفاقية ميونخ .

« إن الهر هتلر على استعداد لتوقيع معاهدة بين فرنسا والمانيا ، تعترف فيها كل منهما بحدودها المشتركة الحالية ، مع التأكيد بأنه ليست هنالك نية أو محاولة لإحداث تغيير أو تنقيح فيها . ثم إنه يرى من ناحية أخرى أن تُبحث المسائل التى يُختلف عليها

فى اجتماعات ودية تعقد لهذا الغرض .

«أما عن مسألة تحديد التسلح، فقد أبدى الهر هتلر سخطه لما أعلنته كل من بريطانيا والولايات المتحدة عن استعداداتهما الحربية . ومن رأيه أنه إذا كان حل هذه المسألة مستحيلا بصفة عملية فى الوقت الحاضر ، فليس أقل من أن نتفق على برنامج لجعل الحرب أشد انسانية (كمنع ضرب المدن المفتوحة مثلا)

« ثم إنه أشار إلى مسألة النقد وأهمية تثبيته ، بيد انه كان يرى أن يستعين بالخبراء فى شئون الاقتصاد لبحث هذه المسألة .

« وفى نهاية المحادثة طلب المستشار من وزير خارجية الريخ ، أن يجعل من المقترحات التى بسطت اثناء هذا الاجتماع، موضوعا للبحث والدراسة ، حتى إذا استكمل وضعها ، أرسلت الينا للدرس ، أو للتصحيح والنقد .

« وعملا بالرأى الذى أبديتموه سعادتكم إلىّ عند مقابلتى الأخيرة لكم ، فقد وضحت وجهة نظر الحكومة الفرنسية من حيث عنايتها بدراسة جميع المقترحات التى يوافق عليها المستشار أو التى يقترحها بنفسه .

وقد اتفقنا على أن تكون الدراسة الاولية لهذه المسائل بصفة سرية ، مع احتفاظنا بحق الاتصال بالحكومة البريطانية ، واحتفاظه بحق الاتصال بالحكومة الإيطالية »

(فرانسوا بونسيه)

(٢)

من فرانسوا بونسيه سفير فرنسا فى برلين ، إلى جورج بونيه ، وزير الخارجية الفرنسية :

برلين فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٨

« . . . عندما أرسل الىَّ المستشار الالمانى فى مساء ١٧ أكتوبر يطلب مقابلتى بصفة عاجلة ، أمر بوضع إحدى طائراته الخاصة تحت تصرفى . لهذا سافرت فى اليوم التالى بطريق الجو إلى برشتسجادن فى صحبة الكابتن اشتالن ، فوصلت فى الساعة الثالثة بعد الظهر . بيد انى لم أذهب إلى ڤيلا اوبرسالسبورج حيث يعيش الفيرر ، بل إلى مكان عجيب يقيم فيه حين يعتدل الجو .

« ويبدو هذا المكان من بعيد على قمة صخرة عالية كأنه مرصد أو دير من الأديرة . والوصول إلى هذا المكان فى طريق دائرى طوله تسعة أميال حفر فى صميم الحجر ، يدل على براعة المهندس « تود » الذى صممه ، كما يدل على مبلغ الجهد الذى بذله العمال الذين أكملوه فى ثلاثة أعوام .

« وينتهى الطريق عند نفق يقود الى الجبل تسدّه بوابة مزدوجة من البرنز . وينتظر الزائر فى نهاية هذا النفق مصعد كهربائى فسيح مزخرف بالنحاس ، يرتفع الى علو ٣٣٠ قدما قدت فى الصخر ، وينتهى الى حيث يقيم المستشار عند أقصى قمة تلك الصخرة .

« ويجد الزائر نفسه فى بناء رحب وبهو ذى أعمدة رومانية ، تتوسطه قاعة دائرية فسيحة ، تحيط بها النوافذ ، وتتصدرها مائدة حولها نحو ثلاثين مقعداً . وفى أحد اركانها مدفأة تلتهب فيها كُتل كبيرة من الخشب . وللقاعة جملة أبواب تقود الى غرفات للجلوس أثثت بعدد من المقاعد الوثيرة . والناظر من أحد هذه النوافذ ؛ يخيّل اليه انه فى طائرة محلقة فى الهواء ، فوق

فسيح عجيب من الأرض؛ تبدو فى أفقه البعيد مدينة سالسبورج بقراها وجبالها وقممها ومراعيها وغاباتها . والناظر إلى أسفل المكان يحس كأنه معلق فى الفضاء ، على رأس جدار من الصخر الأجرد .

« كان هذا المكان، وقد سبح فى أضواء الشفق، ساحراً فتانا يذهب باللب ، حتى ان الزائر ليشكل عليه الأمر ويعجز عن أن يصدق أنه فى يقظة وليس فى حلم بديع !

* * *

« قابلنى المستشار فى كثير من الود والمجاملة ، وكان شاحب الوجه بادى الإعياء ؛ ولكنه لم يكن فى إحدى ثوراته النفسية ، إذ جاء إلى هذا المكان يلتمس الراحة . ثم قادنى بنفسه إلى إحدى نوافذ القاعة ، وراح يلفتنى إلى بعض المناظر الأخاذة التى كنا نشرف عليها ، والتى لم أخف الدهشة والعجب عند امعان النظر فيها .

ثم إنه أمر باعداد الشاى فى إحدى الغرف المجاورة . ولما إختفى الخدم ارتجت على ثلاثتنا الأبواب ، وجرى بيننا الحديث

الذى كان يقطعه الهر فون ريبنتروب من وقت إلى آخر لكى يؤمن على بعض الملاحظات التى كان يبديها الفيرر .

« . . . يحس أدولف هتلر بخيبة الأمل للنتائج التى تمخضت عنها إتفاقية ميونخ ؛ إذ كان يعتقد بأن اجتماع الأربعة الذى أدى إلى إبعاد خطر الحرب ، كان بداءة عصر جديد ، سوف تسود فيه روح التفاهم ، وتوثق فيه العلاقات بين الأمم ، ولكنه لم ير أن شيئاً من هذا قد حدث . فالأزمة لم تحل بعد ، والموقف الدولى يتعقد أشد من ذى قبل ، إذا لم يعمل أحد على تصفية غموضه . فبريطانيا تطنطن بتهديداتها وتُدل بقوتها ، لهذا انتهز المستشار الفرصة للكلام عن أنانية تلك الدولة ، وعن اعتقادها الصبيانى بحقوقها وبامتيازها عن غيرها من الدول . وقد سبق ان أبدى المستشار علانية هذا الرأى أكثر من مرة .

« ولكن ثورة المستشار سرعان ما تنطفىء . فقد وضحت له أن رد الفعل أمر طبيعى بعد ذلك الابتهاج باستتباب السلام . فتلك التضحيات التى مُنيت بها تشكوسلوفاكيا وتلك المعاملة التى استخدمت معها ، لا تعدم ضميراً يثور من أجلها ، لا سيما

أن الخطاب الذى ألقاه فى سار بروكن نشر الأعتقاد بان تلك التضحيات قد ذهبت هباء، وليس لها من نتيجة سوى فتح شهية رجال الريخ الثالث. فذلك الخطاب قوّى حجة المناهضين لاتفاقية ميونخ.

إلا أن الفيرر اعترض على ذلك؛ مؤكدا أنه لم يفتح باب النزاع القائم، وأن انجلترا هى المسئولة وحدها عن كل هذا. كما انه أكد بأنه لم يتفوه بكلمة ضـــد فرنسا؛ وأنه لم يسىء معاملة تشكوسلوفاكيا؛ وكل ما هنالك أنه تشدد فى المطالبة بحقوق الشعب الألمانى التى ديست بالأقدام.

« بيد أنى بينت له أن التفكير فى المستقبل أشد أهمية من البحث فى أغلاط الماضى وتفنيد المسئولية عن أخطائه. إذ أن أوربا تواجه فى الوقت الحاضر مرحلة جديدة بعد ان استتب السلام، وما أعقب ذلك من تضحيات أليمة. فعلى رجال السياسة أن يبحثوا وهم أكثر إيماناً ويقيناً من ذى قبل، عما إذا كانت تلك الاتفاقية قد فشلت، أو ان التجربة قد اثبتت ضرورة تعاون الدول الدكتاتورية والديمقراطية فى معالجة هذه

الحالةمعالجة صحيحة، حتى يعود السلام الدائم الى أرجاء أوربا .

« ولم يبد الهر هتلر إعتراضاً، بل صرح بإنه على تمام الاستعداد لمناصرة هذه الفكرة . نعم إنه دعانى لتوديعى قبل سفرى، ولكنه دعانى أيضاً لبحث هذه المسألة .

« وقد أبدى الهر هتلر موافقته الصريحة على الاقتراح الخاص بمسألة الاعتراف بالحدود الفرنسية الألمانية الراهنة . كما أنه وافق على بحث جميع المسائل التى قد تتعرض لها العلاقات بين الدولتين . ولا شك فى أن هذه المسألة بالذات قد صادفت هوى صادقا من نفسه .

... وفى ختام المحادثة ، أصدر أمره للهر فون ريبنتروب (كما ذكرت سابقاً) ان تبدأ وزارته فى بحث ودراسة هذه المقترحات التى عرضت على بساط المناقشة ، وصوغها فى وضع قانونى . ولا شك فى أن باريس ستدرس هذه المقترحات وتبدى رأيا فيها . وإنى واثق من أن هذه المقترحات ستصادف عناية وعطفا أكيداً ، لأن بواعث السلام التى تستثير الفيرر هى بعينها التى تستثيرنا ؛ لهذا السبب أصبح لزاما أن نحيط هذه

المباحثات بسياج من الكتمان ، حتى لا تتسرب أخبارها إلى آذان الجمهور الآن فى الوقت المناسب ، فالرأى العام يجب أن يبقى جاهلا ما يدور بيننا حتى نصل إلى نتائج حاسمة .

« . . . وفى خلال هذه المحادثة، التى استمرت ساعتين كاملتين، كان الهر هتلر يجيب على أسئلتى بصراحة وبساطة وسلامة طوية . نعم ، لقد جاء الوقت لان نحسب حسابه !

« وعندما استأذنته للخروج، أبدى الفيرر رغبته فى أن يرانى يوما من الأيام فى ألمانيا ، وان ازوره بصفتى الشخصية . ثم إنه هز كلتى يدى عدة مرات . . . »

(فرانسوا بونسيه)

(٣)

من كولوندر سفير فرنسا فى برلين ، إلى جورج بونيه ، وزير خارجية فرنسا

برلين فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣٩ الساعة ١٥ر١٢ ظهراً (وصل باريس الساعة ٣٠ر٤ صباحا)

« إننى آسف لأن أبلغ سعادتكم، بان كتاب الرئيس دالادييه،

لم يلاق قبولا من المستشار هتلر .

« فقد مكثت فى حضرته أربعين دقيقة حاولت فى خلالها، ان أعزز ماجاء فى كتاب الرئيس الحماسى . نعم ، قد يكون المستشار تأثر بما قلت ولكننى مع ذلك لم أنجح ، لأنه كان قد قطع رأيا فى هذه المسألة .

« فبعد أن قرأ الهر هتلر كتاب رئيس الوزارة ، وأبدى تقديره لما احتواه من عواطف سامية ، ذكر لى أن بولندا بعد ان تسلمت التأكيد البريطانى ، أصبح من المستحيل عليها أن تعى دقة الموقف الذى تواجهه . لقد أصبح عنادها جنونا . وهى تعلم علم اليقين أن عملها هذا انتحار ؛ ولكنها وقدضمنت المساعدة البريطانية الفرنسية ، تعلل النفس بانها سوف تنهض مرة ثانية فى يوم من الأيام !

« وأضاف إلى ذلك قوله : إن الموقف قد تحرج أكثر من ذى قبل ، وإنه ما من دولة تحترم شرفها ترضى بهذا التحرش البولندى ؛ ولو كانت فرنسا فى موقف ألمانيا لما ترددت فى أن تخوض غمار الحرب . ولو ان فى وارسو ولا شك رجالا

معقولين ، بيد أن رجال العسكرية فى تلك الدولة المتبربرة تسيطروا على الأمر فيها ، وأن دفة الحكم قد خرجت عن يد الحكومة المركزية .

« وذكر الهر هتلر ، انه لا يشك فى نبل عواطف المسيو دالاديه ورغبته الاكيدة فى صون السلام ، بيد أنه واثق بأن نصيحة رئيس الوزارة إلى وارسو مهما كانت ملحة ، ستقابل بأذن صماء بعد ذلك التأكيد البريطانى . وأنه إذا أبدت بولندا رغبة لبحث هذه المسائل ، فليس من غاية وراءها سوى كسب الوقت للاستعداد .

« . . . ثم اردف الهر هتلر قوله « إن هذا جهد ضائع ، فبولندا لا تتنازل عن دانزج ! ولكننى صممت على أن تعود دانزج إلى الريخ ، لانها احدى موانيه . . . »

(كولندر)

ليلة اعلان الحرب

« تحولت مسألة دانزج والممر البولندى إلى مشكلة أوربية جديدة . وفى مارس سنة ١٩٣٩ تعهدت فرنسا وانجلترا بمساعدة بولندا فى حالة الاعتداء عليها . وفى أول سبتمبر عبرت الجيوش الألمانية حدود بولندا ، مما دعا كلا من فرنسا وبريطانيا الى القيام بتعهداتها حيال بولندا . . . »

مضى عام أو بعض عام ؛ وأخذ فى أثنائه سحر ميونخ يتضاءل من العيون . ونسى كثيرون حكاية تشيكوسلوفاكيا ؛ وأنشئت خلاله دويلات ومحيت خلاله أخرى ؛ وأخذت باريس لونها القديم ؛ فمعارضها لم تكن أقل بهجة ، وزوارها لم يكونوا أقل عددا ، وإغراؤها لم يكن أقل فعلا ..

ولكن فى وسط هذا الربيع من الحياة ، كان هنالك طنين استحال إلى همهمة ، والهمهمة إلى نذير عند ما احتلت دانزج مرتبة المشاكل الدولية ، وأخذ اسمها طريقه إلى صدر كل صحيفة

من صحف العالم !

حتى إذا كان اليوم الأخير من شهر أغسطس، أصبح ذلك النذير خطراً محققاً ، ولكن باريس تعلمت الاستعداد للأزمات منذ أسبوع ميونخ القديم ، فلم تفزع ولم تؤخذ على غرة . وأخذت المنشورات الوطنية الحماسية مكانها المعتاد على الجدران ، وصدر نداء يدعو أهل باريس ممن يملكون بيوتاً فى الريف أن يعجلوا بالسفر اليها ، لأنه من المنتظر أن يكون لحركات الجنود الأولوية عن غيرهم من المسافرين .

وجاء دور تلاميذ المدارس ، فكانت محطات باريس جميعها تزدحم بهم ، وبدت أرصفتها كأنها أفنية مدرسية . وكان يقود كل فرقة من هؤلاء الأطفال معلم أو ممرضة . ومُنع الآباء من وداع أبنائهم إلا فى المدارس نفسها ، تحاشيا من المناظر المؤثرة . وأعدت لصغار هؤلاء التلاميذ مركبات الدرجة الأولى، ثم الثانية فالثالثة لأكبرهم سناً .

* * *

أشرق على أهل باريس شهر سبتمبر ، على صوت

الطلقات الأولى التى دوت على الحدود الألمانية البولندية.

وأرسلت الحكومتان الفرنسية والانجليزية إنذاراً إلى حكومة الريخ تبلغانها فيه «أن الحكومة الألمانية قامت بعمل عنيف يهدد استقلال بولندا بهجومها عليها، مما يدعوهما إلى القيام بتعهداتهما. فاذا لم تتلقيا منها تأكيدات بعزمها على وقف كل عمل هجومى وسحب جيوشها، فانهما ستقومان بالتزاماتهما دون تردد...»

وفى هذا اليوم خطب تشمبرلين فى لندن، كما خطب هريو فى مجلس النواب الفرنسى، وصرح «بأن فرنسا تواجه الخطر وهى مرفوعة الرأس».

وللمرة الثانية منذ شهر سبتمبر الماضى، صدر مرسوم باعلان التعبئة العامة، ولكن الجمهور مع شعوره هذه المرة بحقيقة الخطر؛ لم يسترسل إلى عواطفه؛ فلم تكن هنالك مظاهرات صاخبة تشق الشانزليزيه إلى قوس النصر. وما كانت باريس فى هذا اليوم لتسمح بتلك المشاهد الثائرة التى عرفت عنها فى يوليه عام ١٩١٤.

* * *

ما أسرع أن تغير وجه باريس ما بين الأمس واليوم !

لم تكن البلاغات الرسمية التي توالت منذ الأمس لتفعل هذا وحدها، بل إنه الشعور العميق بالكارثة . فجرت أعمال التعبئة فى سكينة تامة ، وتم جلاء آلاف من أهلها فى هدوء شامل ، دون جلبة أو صخب . وكانت الصحف بين وقت وآخر تنشر خبراً حماسياً ؛ فقد ذكرت أن المسيو زاى وزير التربية الوطنية، ترك منصبه فى الوزارة لينضم إلى فرقته فى الجيش ، ولكن الحماس الذى كانت تثيره مثل هذه الأخبار لم يعد الشعور بالواجب القومى عند الأفراد وعند الجماعات .

* * *

وعند ما كان اليوم الثالث من شهر سبتمبر ، أعلنت فرنسا كما أعلنت بريطانيا أنها فى حالة حرب مع ألمانيا ، ولكن الحقيقة، أن باريس قد أعلنت وهى صامتة هذه الحرب منذ ثلاثة أيام ، فلم يثر هذا الاعلان الرسمى جديداً !

وفى ظهيرة ذلك اليوم ، ذهب المسيو كولندر، سفير فرنسا

فى برلين الى وزارة الخارجية ، تنفيـذاً للقرار الذى اتخذته الحكومة الفرنسية ليلة أمس،ليطلب رد ألمانيا على البلاغ الذى سلم اليها فى أمس الأول ، وليبلغ حكومة الريخ ان فرنسا تعتبر امتناع الحكومة الألمانية عن الرد رداً سلبياً ؛ وأنها فى هذه الحالة ، تجد نفسها مضطرة إلى تنفيذ التعهدات التى قطعتها على نفسها ازاء بولندا، وهى معروفة لدى الحكومة الألمانية .

وفى منتصف الساعة الواحدة أرسل المسيو كولندر أحد سكرتيرى السفارة الفرنسية فى برلين يطلب جواز سفره ، كما حدث مثل هذا فى باريس . وعلى هذا النحو ، قطعت العلاقات السياسية بين الجمهورية الثالثة ، وبين الريخ الثالث .

* * *

كان اليوم من أيام الأحد ، وكان أهل باريس ممن وطدوا العزم على البقاء فيها نافرين الى حدائق الكسمبورج أو غابات بولونيا ، أو متجمعين فى مقاهى البولڤار، أوعائدين على الأقدام من أطراف المدينة ، عند ما انطلقت صيحات بائعى الصحف تنذر باريس باعلان الحرب .

ولـكن العجيب، أن صوتا واحداً لم يرتفع بالنداء أوذراعا تمتد بالتهديد ، وسرعان ما انفضت حلقات المتطلعين بدلا من أن تتكاثر وتستحيل الى مظاهرات داوية صاخبة . بيد أن الشعور بفروض الواجب الوطنى ودلائل اليقظة السياسية كانت ترتسم على الوجوه .

وكأن ستاراً أسدل على المسرح ، فبدت باريس فى لونها الجديد ؛ إذ اقفرت الطرقات من السيارات العامة، وخلت من سيارات الأجرة التى استولت عليها الحكومة ، ولم تعد قطارات المترو تسير إلا لماما ، وتجمعت فى أفنية المحطات مواكب المهاجرين ومواكب المجندين ، وقد لبى نداء الوطن كل فرنسى دون الأربعين من العمر ، بما فى ذلك رجال البرلمان أنفسهم .

وأقفلت المطاعم والمقاهى أبوابها فى الساعة الحادية عشرة من المساء ، كما أغلقت كثير من المسارح ودور السينما ، وخفضت أثمان بعضها الى النصف تكريماً للمجندين .

وصدرت صحف باريس فى أربع صفحات ، لأن كثيراً من كتابها ومن عمال المطابع الذين كانوا يعملون فيها أجابوا نداء الوطن .

وأخذت القطع الفضية والبرنزية تختفى من الأيدى ، بعد المرسوم الذى صدر أمس بسحبها من الأسواق ، واستعيض عنها بأوراق مطبوعة . وفتحت فى هذا اليوم أبواب المصارف مع أنه من أيام الأحد ، بيد أن بورصة الأسهم والبضائع انتقلت من باريس إلى مكان غير معروف .

ولم يأت المساء حتى كانت آلاف النوافذ قد كللت بالنسيج والأوراق ، لمنع تسرب الأضواء والغازات السامة التى قد يستعملها العـــدو . كما علقت على أبواب المنازل بيانات عن المخابىء وعن الأماكن المعدة للوقاية فى حالة الغارات الجوية على باريس . وراح رجال الحرس يشقون الشوارع وهم لابسون خوزات الحرب . لقد كان كل شىء يذكر أهل باريس بأن الحرب قد وقعت فعلا ، وانهم يودعون اليوم آخر يوم

من أيام السلام التى امتدت نحواً من ربع قرن .

* * *

حتى إذا كان الغد، ظهر أول بلاغ حربى فى صحف باريس، ولكنه لم يعدُ سطراً واحداً ، ولم يذكر إلا أن الأعمال الحربية التى تقوم بها جميع قوات فرنسا ، فى البر والبحر والجو ، سائرة فى طريقها الطبيعى.

ثم قيل إن الهجوم الفرنسى بدأ على ضفاف الموزل السفلى عند لوكسمبورج ، وإن خط سيجفريد الذى أنشأه الألمان على عجل لن يصمد لهذا الهجوم الفرنسى .

ثم استحال خطا ماجينو وسيجفريد بركانين . وأخذت طلقات المدافع تتجاوبها ضفاف الراين ، وراحت الصحف تذيع أخبار التقدم وأنباء الانتصارات المحلية المتلاحقة ، وتؤكد بأن الوقت قد أزف لجلاء الألمان عن أكس لا شابل وعن سار بروك وعن كولونيا .

* * *

ثم مضى أسبوع ؛ وأخذت البلاغات الحربية تزداد اقتضابا ، وحط الهدوء على ضفاف الراين والموزل من جديد ، وعادت الطمأنينة والثقة الى النفوس .

وكان خط ماجينو يسبح فى خيال كل فرنسي : ماجينو سور فرنسا الأعظم ، وأعجوبة الفنون الحربية ، وان أبراجه الاربعة عشر ألفاً بمدافعها المصوبة نحو المانيا لكفيلة بأن ترد كل كيد ، وأن تقف فى سبيل كل عدوان .

النار فوق باريس

« بين سبتمبر سنة ١٩٣٩ ومايو سنة ١٩٤٠ كانت الحرب بين فرنسا وألمانيا لاتعدو منطقة الراين ، إلا أن استسلام هولندا واندحار بلجيكا فتح الطريق إلى قلب فرنسا وأصبحت باريس نفسها فى خطر . . . »

أخذت أيام الصيف تقترب ، واستحالت الموقعة الكبرى حول دنكرك إلى معركة فناء ، إذ لو قدر للألمان أن يصلوا إلى ساحل المانش ، فان باريس ستكون هدف هذه القوات المنتصرة . باريس، التى كانت حتى ذلك الحين، فى منأى عن فواجع الحرب الدامية ؛ وكانت الصحافة وكانت الإذاعة حلقتى الوصل بين فرنسا المحاربة وبين عاصمة جميع الفرنسيين .

ولكن ساعة باريس قد دقت .

ففى منتصف الساعة الثانية ، من بعد ظهر يوم ٣ يونيه سنة ١٩٤٠ حلقت فوق سماء باريس سحابة من الطائرات الألمانية ،

حلقت فوقها للمرة الأولى، وألقت عليها مئات من القنابل الثقيلة التى تزن الواحدة منها مئتى رطل.

نعم إن باريس ذعرت، ولكنها كانت ما زالت تسبح فى أحلامها الذهبية، لا تحس بمرارة الحرب التى صرعت الآلاف حول حدودها الشمالية. وطارت الاشاعات عن نتائج هذه الغارة التى غزت باريس فى وضح النهار، فكان الجالسون على مقاهى الحى اللاتينى يسألون بعضهم بعضاً حتى الساعة الرابعة عما حدث، وكان يتبرع عارف بأن مصانع رينو وستروين وغيرهما قد خربت، ولكن الحقيقة أن هذه الاخيرة وحدها كانت هدف الغارة الألمانية.

وسارت طوائف المتطلعين إلى حيث نزلت الفاجعة؛ فغصت بهم الشوارع والطرقات التى تقود إلى تلك المصانع، واختلطوا بمئات من رجال المطافىء الذين كانوا يعملون باخلاص وتضحية. ولم يكن هناك من يأمر هؤلاء المتطلعين بالابتعاد عن أبنية المصانع، ولم يكن هناك من يمنع الصحفيين الأجانب من التجوال بين أرجاء المكان وأخذ الصور

الفوتوغرافية ، التى قد تكون ذات أهمية خاصة للأعداء . بل كان أول من حضر من الرجال المسئولين ، ممثل للسفارة الايطالية فى باريس ، فحص آثار الفاجعة بعناية ودقة ، وسرعان ما أبرق إلى حكومته . لقد كانت باريس والنار فوقها أشد فوضى منها فى أيام السلام الذاهبة !

كانت نتائج تلك الغارة فادحة ، فلم ينج من شرها ركن من أركان تلك المصانع الكبيرة ، ولم تكن لترى منها إلا جداراً واجداً قائماً على أساسه فى طرفها الشمالى . أما سقف مستودع السيارات فقد اختفى ، وتناثرت ملايين من قطع الزجاج فى كل مكان . وكان هذا المستودع يحوى عدداً كبيراً من السيارات ، بيد أن أحداً لم لم يفكر فى إنقاذها من النار التى كان تضطرم حولها ، الا بعد أن امتدت إليها ألسنة اللهيب . ولم يصل رجال المطافىء إلا بعد نصف ساعة من نزول الفاجعة !

ولولا لطف الله لكانت المصيبة أشد هولا ، إذ أن الغارة حدثت فى فترة راحة العمال ، ولولا ذلك لما اقتصر الغرم على ضياع أرواح مئتين وخمسين ليس إلا .

وامتدت يد الخراب الى ذلك الحى بأكمله ، فلم ينج شارع من شوارعه أو منزل من منازله الأنيقة فى شارع باستير او لويس بلريو من آثار تلك الغارة . ومن المناظر العجيبة التى خلفتها الفاجعة ، منزل ذو ستة طباق عند ركن شارع باستير ، أصابته قنبلة ثقيلة انفجرت فى قاعه بعد أن أطارت جميع سقوفه ماعدا السقف السادس ، الذى أحدثت فيه القنبلة ثغرة اندفعت من خلالها إلى أسفل البناء ! وحدث عند ماسقطت تلك القنبلة ، أن كان زوجان فى طريقهما الى المخبأ ، فأطارت السلم عند الطابق الخامس فلم يصابا بضرر ، بيد أنهما بقيا معلقين فى الهواء فوق بقية ذلك السلم حتى جاء رجال المطافىء فأنقذوهما !

ولو أن صفارات الانذار أطلقت والطائرات فى طريقها إلى باريس أو عند وصولها ، لما ضاعت أرواح عدد كبير ممن كانوا فى طريقهم إلى المخابىء عند ما سمعوا الإنذار ، ولكن بعد بدء الغارة .

وفى ذلك المساء ، أذاع رينو خطابا أعلن فيه أن مصانع ستروين تعمل كعادتها ! بينما كانت النيران حتى تلك الساعة

تندلع بين أرجائها ، وما زالت القنابل التى لم تنفجر مطمورة تحت جدرانها ، تنذر بخطر جديد فى أية ساعة من الليل أو النهار !

* * *

وفى الغد ، بدأ الألمان للمرة الثانية هجومهم الكبير ، وكان المسافر فى الطريق من باريس إلى جبهة القتال على نهر الآسن تعترضه المتاريس التى أقيمت من الأحجار والمحاريث والسيارات القديمة ومن كل ما وصلت إليه يد السلطات إذ ذاك ، ووقف إلى جوار هذه المتاريس حراس من زنوج أفريقيا ، يعيدون إلى الخاطر ذكرى أيام الحرب العظمى الماضية حين أبلوا فى سبيل فرنسا بلاء عظيما ؛ أما اليوم فقد أفقدتهم مبتكرات الحرب الحديثة من طائرات ودبابات تلك الحيوية وتلك الشجاعة التى عرفوا بها .

وأشعل الألمان النار فى اجران التبن بإلقاء القنابل عليها من الهواء ، وبقيت هذه الحرائق مشتعلة أياما عديدة لتكون دليلا تهتدى به طائراتهم . كما دمروا أسلاك التليفون والبرق ،

فاستحال الاتصال بين باريس وبين ميدان القتال .

وفى هذا الهجوم الكبير على باريس ، الذى بدأ فى الساعة الرابعة من يوم ٥ يونيه ، استخدم الألمان نصف مليون من المشاة تعززهم ألف طائرة ، اندفعوا بهم فى ثلاثة إتجاهات جنوبى باريس . وفى ذلك المساء خطب رينو يقول « إن هذا الهجوم أعظم محاولة قام بها الألمان ، سبقه هتلر بنداء إلى جنوده ، وإن العالم لينظر وهو محبوس الأنفاس نتيجة هذه المعركة . فشهر يونيه سنة ١٩٤٠ سيكون نقطة تحول فى تاريخ العالم ، وربما امتدت نتائج أحداثه إلى عدة قرون كما قال هتلر نفسه . . . »

***

ومع أن الخطر كان داهما فوق باريس ، فان أخبار هذا الصراع العنيف ما كانت لتصل إلى أذان أهل باريس إلا مبتورة مقتضبة ، حتى إذا حلت النازلة فى نهاية ذلك الأسبوع صعق الباريسيون من أثر الفاجعة ، فاستولت الحيرة كما استولى الفزع على القلوب .

بل إن السلطات كانت قد كممت أفواه الصحافة

نفسها ، فلم تدع صحفيا يفلت من باريس ليسجل أخبار معركة من أروع معارك التاريخ .

وفى قاعة لوكارنو ، التى وُقّع فيها من قبل على ميثاق بريان كيلوج للقضاء على الحرب ، كان يجتمع كل مساء رجال الصحافة حول مائدة المؤتمر التاريخية ، يستمعون إلى أخبار الموقعة التى كان يفرّج عنها الكولونيل « توماس » مندوب وزارة الحرب الفرنسية . وكان الكولونيل الصلة الوحيدة بين معركة فرنسا ، وبين رجال الصحافة ، بل بينها وبين العالم بأسره .

وفى اليوم الأول، لم يذكر الكولونيل شيئاً عن الدبابات. وفى اليوم الثانى، دهش رجال الصحافة عندما علموا أن الألمان ألقوا بدباباتهم الألفين فى الموقعة . حتى إذا كان اليوم الثالث ، تضاعف هذا العدد بقدرة قادر ، كما استحالت الفرق العشر التى استخدمت فى الهجوم إلى مائة فرقة ، أى أن مليونين من الألمان كانوا فى طريقهم إلى باريس .

وأثار هذا التطور العجيب المفاجىء الحيرةَ فى نفوس أهل باريس. وكنت تسمع الباريسيين يتساءلون وقد لعبت بهم الشكوك:

« ألم يذكروا بالأمس أن الألمان قد ألقوا بجميع دباباتهم في الموقعة ؟ إذاً كيف ارتفع عددها اليوم إلى أربعة آلاف دبابة ؟ إن هذا مستحيل ، إن هذا غير معقول ! »

وفى العاشر من ذلك الشهر المشئوم ، سرت فى باريس ثورة نفسية حادة ، هى مزيج من الغضب والسخط والاشمئزاز ، فقد أعلن موسيلينى الحرب على فرنسا الجريحة ، لقد طعنها من الخلف . . !

وكان الألمان فى ذلك التاريخ، قد عبروا السين فى أكثر من نقطة واحدة ، وأصبح الطريق إلى باريس مفتوحا .

وما جاء مساء ذلك اليوم ، حتى حزمت الحكومة ركابها وهجرت باريس . . .

لم يدافعوا عن باريس

« كان عزم الحكومة الفرنسية أكيداً فى الدفاع عن باريس ، حتى إذا عبرت الجيوش الألمانية السين ، عادت وأعلنت ان باريس مدينة مفتوحة ومنعت كل محاولة لتحصينها أو الدفاع عنها . ولكن ما سبب هذا النكوص ؟ وهل كان من المستحيل الدفاع عن باريس ؟

استحال تقهقر الجيوش الفرنسية فى التاسع من شهر يونيه الى فرار ، واستحال تقدم القوات الظافرة فى اتجاه باريس الى اكتساح ...

لقد أذهل فرنسا هذا الانتصار الخاطف ، فتسمرت عيونها ، ولم تعد ترى شيئاً ، وأرتج عليها القول والفعل ، وامتنعت عنها الروية والفطنة ، وراح الجندى المتقهقر يسال أهل المدينة عن الأخبار ، وفزع أهل المدينة الى هؤلاء المنسحبين يسألونهم عن المستقبل ! ولكن الغد كان محجباً أمام عيونهم ، ولم يعد

يعرف أحد ما هو صانع ، وبقيت باريس بلا قلب ولا عقل ثلاثة أيام ، كأنها معلقة فى السحاب . . .

وكان على رجال السياسة أن يفعلوا شيئا ، أن يفعلوا أى شىء ! إذ أن قوات الجنرال هوت الميكانيكية قد استولت على روان وانحدرت فى اتجاه السين الأعلى ؛ وكانت سوق الأخبار الرسمية لاتستقر ، فأنباء الأمل واليأس تبدو بالخط العريض فى الصحيفة الواحدة ؛ وكانت البلاغات يناقض بعضها البعض حتى لم يعد أحد يعرف ماذا ينفى وماذا يصدق . .

ولكن كان على رجال السياسة أن يفعلوا شيئا ، أن يفعلوا أى شىء !

ولم يعد من طريق للخلاص إلا شىء واحد ، هو الورقة الأخيرة فى يد مقامر يائس . . . هو الدفاع عن باريس !

وفى مساء ذلك اليوم عينه : أعلن الجنرال هرنج أن الدفاع عن باريس أصبح أمرا مقررا ؛ ولكن الذى قصدوه بهذا الإعلان ما كان واضحا ولا مفهوما .

إذ أن السلطات المسئولة ، لو قصدت الجد بإعلان الدفاع عن

باريس لدعت الباريسيين أنفسهم إلى المساهمة فى الدفاع عن مدينتهم بإقامة الحواجز والمتاريس فى الشوارع ، ليعيدوا إلى الأذهان تاريخ ذلك الدفاع المجيد الذى شهدته شوارع باريس منذ سبعين سنة !

وكان على فرق المتطوعين أن يحولوا بعض أركان العاصمة إلى مراكز دفاعية قوية ، مزودة بالميرة والذخيرة الكافية لحصار طويل ، وكان عليهم أن يجعلوا من تلال مونمارتر حصنا قويا كما كانت من قبل ، تنصب عليها المدافع المضادة للطائرات وتقفل الطرق المؤدية إليها بالمتاريس ! وكان عليهم أن ينشئوا مراكز للمراقبة فوق قوس النصر وعلى قصر فنسين وفوق مرتفعات مونبرناس .

وما كانت السلطات مفتقرة إلى الأيدى العاملة ، إذ كان لديها ألوف من العمال يشتغلون فى مصانع رينو وستروين ، وألوف من حراس الأسواق الأشداء ، وألوف من البريطانيين والأمريكيين والتشك والبولنديين، وغيرهم من أبناء الجنسيات

التى تفيض نفوسهم حماسة وحرارة للدفاع عن العاصمة الفرنسية .

وكان هناك رجال الوحدات المرتدة من ساحات القتال على ضفـاف الآسن والسين ، والتى ما زالت لديهـا الرغبة فى مواصلة القتال . وكان يسيرا على رجال المدفعية أن يحملوا معهم زخائرهم وعتادهم للدفاع عن باريس ، كما دافع الجمهوريون شهورا طويلة عن مدريد .

كان على باريس أن تطلب العون من جميع أبنائها ، وما كان ليضيرها لو فتحت أبواب السجون ، وجعلت من أبنائها المذنبين فى أيام السلام حماة لها فى أيام المحنة .

لو فعلت باريس ذلك ، وانتشرت أخبار هـذا الدفاع بين أنحاء فرنسا، لوقفت كل مدينة وكل قرية لم يدخلها الألمان بعد، لوقفت هذه جميعها للدفاع عن نفسها محتذية حذو أمها باريس . وما كانت ليون وديجون ولامانس وأورليانز وغيرها تعدم الرجال من فلول الوحدات المرتدة . فهذه الحرب كما قال رينو نفسه ، ليست حرب خطوط ممتدة ، بل هى حرب نقط قوية . فلو حدث ذلك ، لكانت مدن فرنسا الحرة هى تلك النقط القوية ، ولكانت

المنازل وأركان الشوارع فى المدن نفسها نقطا أخرى فى قلب تلك النقط .

ولكن الرجال الذين وضعت فرنسا مصيرها بين أيديهم من أمثال فيجان كان لهم رأى آخر . فباريس ما فتئت مهد الثورات والحروب الأهلية فى جميع عصور فرنسا ؛ وكان دعاة الشيوعية والاشتراكيون من آلاف العمال، موضع خطر حقيقى أو فزع موهوم يقض مضاجع أولئك السياسيين .

فلو أهابت الحكومة بأهل باريس فى الدفاع عنها ، لهبت هذه العناصر، ولعصفت نار ثورة وطنية أشد خطراً من جيوش هتلر الظافرة . لهذا فزعت الحكومة من التفكير فى الدفاع عن باريس ، فزعت من رؤية آلاف من العمال فى مصانع رينو ، ومن الغوغاء يحملون البنادق والقنابل اليدوية فى شوارع باريس! لا ! لقد ذهب أولئك الساسة أبعد من ذلك ، فأمروا رجال البوليس باطلاق النار ، إذا شاهدوا علامة من علامات الدفاع عن عاصمة فرنسا !

لقد كانت هوة الخلف بين الشعب وبين زعمائه عظيمة ،

فما كانوا ليهيبوا بوطنية الشعب ، وما كانوا ليطلبوا منه التضحية للدفاع عن كرامة قومية ، بل كان على هـذا الشعب أن يطيع وأن يجيب النداء دون أن يعرف البواعث التى تستفز الوطنى فى الدفاع عن بلده : فتجمع للقيادة الفرنسية كما قيل خمسة ملايين رجل ، ولـكنهم جاءوا اليها بلا قلب ولا عاطفة .

وكانت أنانية طبقة «البورجواز» أشد خطرا ، فقضت على الروح المعنوية الباقية فى النفوس ؛ لقد ذعر هؤلاء من أن يروا مقاهيهم الجميلة على جوانب الشانزليزيه كومة من الانقاض ، وبيوتهم حول غابة بولونيـا خرائب بلقع ، فزعوا من ضيـاع اللوفر والأوبرا ، وخافوا على رءوس أموالهم وعلى ممتلكاتهم من أن تصل اليها يد الغوغاء . فكان لابد من التسليم .

إن باريس لن تسلم ..

إن باريس مدينة مفتوحة ...

سوف ندافع عن فرنسا حتى فى شمال إفريقيا ...

لن نقبل هدنة شائنة ...

ثم إنهم أمضوا صكا على ورقة بيضاء !

المساء الاخير

« صحفي فرنسي ، اشتراكي السياسة ، يهودي المنبت ، لويس ليفي مؤلف كتاب (حقائق عن فرنسا) يصف ليلته الأخيرة في باريس قبل الجلاء عنها . . »

طفت اليوم مرة أخرى بميدان القتال في اوتسي لوشاتو . وقد وجدت فيه رجالا أضناهم التعب ، ولكنهم جد مصممين على الدفاع إلى آخر رمق .

وفي المساء عدت إلى باريس ، فألفيت القلق قد استولى على النفوس ، ولم تكن الهزيمة قد نفثت الفوضى والاضطراب بعد ، ولكنك تحس وأنت في دور الوزارات وفي مكاتب الصحف بأن هناك همسا ، وأن هناك استعدادا للرحيل عن باريس في الغد الباكر . . .

لم يعد شك في أن الألمان يتقدمون نحو باريس ؛ فمنذ عبرت جيوشهم السوم ، وقد وصلت قواتهم الميكانيكية إلى فورج ليزو

قبل ذلك بيومين ، أصبح التقدم النازى خطرا واقعا . وقد شاعت الأخبار بأن القتال يجرى اليوم على ضفاف السين غير بعيد من باريس نفسها . .

* * *

حتى إذا كان يوم الاثنين ، اقفرت دور الوزارات، وأرتجت أبواب مكاتب الصحف. وكان كاى دورسى (وزارة الخارجية الفرنسية) فى المساء خاوية خالية ، وأصبح قلب باريس مهجورا أو كاد .

ولم يكن فى مشارب شارع روايال ومطاعم البولفار التى كانت تفيض حياة فى ساعة العشاء ، الا عدد قليل من الزوار .

ولكن اذا ما قادتك قدماك إلى محطة سان لازار ، وقد خيم الظلام ، واستحالت الرؤيا فى تلك الليلة العابسة، فإن عينيك لتقعان على صورة عجيبة من الحياة فى باريس إذ ذاك ؛ حين تعثر قدمك بأكداس اللاجئين الذين قد تهالكوا إعياء وتعبا ، وارتموا على الأرصفة وعلى أعتاب المخازن يلتمسون النوم ؛ أكداس من الرجال والنساء والأطفال !

* * *

وفى الساعة العاشرة من المساء سبحت فى الهواء رائحة البارود أو الدخان ، الذى سد الخياشيم وكتم الأنفاس ، ولم يدر أحد ما مصدره أو سببه ؛ فقيل إن السلطات الفرنسية أرسلت هذه السحب من الدخان لتخفى عن أنظار العدو قطارات المهاجرين من باريس . ولكن السلطات التى هربت وتركت باريس إلى أهلها لم يكن لديها الوقت أو الاستعداد لمثل هذا العمل . كما قيل إن هذه السحب من الدخان حملتها الرياح الشمالية من مواقع القتال حيث كانت تلتهب مستودعات النفض والبترول . وأيا كان سبب تلك الظاهرة العجيبة التى انقشعت فى ضحى اليوم الثانى ، فانها ألبست باريس يوم الجلاء ثوبا من أثواب الحداد . . .

* * *

« وكنت قد أجمعت أمرى على أن أستقر فى باريس لأقوم بمهمتى كمراسل حربى ، بيد أننى علمت فى تلك الليلة أن أكثر المقامات قد رحلت بالفعل عن العاصمة ، بما فى ذلك مكتب الصحافة الخاص بهيئة أركان الحرب ، والذى يتصل عملى به ؛

فلم يكن بد من أن أترك باريس فى يوم الثلاثاء .

لقد وعدت الحكومة بأن يكون الجمهور على علم بما يجرى من الأخبار وما يجد من الأحداث ، ولكنها لم تبر بوعدها .

وفى صباح الثلاثاء أخذت أطوف خلال باريس سيرا على الأقدام ، بحثاً عن سيارة تحملنى إلى تور . لقد كنت أطوف فى مدينة للموتى ؛ فالسيارات العامة وقفت عن العمل ، ولم تعد تقابل فى تلك الطرقات الواسعة سوى نفر قليل من العابرين .

وكانت رائحة ذلك الدخان ما زالت تسد الحلق ، وكانت سحب الضباب الكثيفة تمنع النظر من أن يمتد أكثر من بضع أمتار . وكانت بعض رتل السيارات تندفع فى طريقها إلى مخارج العاصمة محملة بالمهاجرين ومشحونة بالأمتعة .

* * *

ثم أننى أخذت طريق إلى وزارة الداخلية ، فالفيت جنديين يحرسان تلك الدار حول أسوارها الموصدة . وفى قصر الانفاليد الذى أصبح مقراً للسلطة العسكرية وجدت رهطاً من سعاة البريد وحاملى الرسائل وقد تجمعوا فى فنائه .

وألفيت فى المكاتب بعض الضباط والجنود وهم فى حركة دائمة، إلا أن معالم اليأس قد ارتسمت على وجوههم وآثار الاضطراب كانت بادية واضحة؛ لقد كان ذلك أول ماشعرت به من احساس بالهزيمة.

ولكننى فى خلال ذلك لم أكن أشك لحظة فى أن الدفاع عن باريس أمر محقق، وهكذا تركت المدينة وأنا موقن تمام اليقين بأنى عائد اليها فى القريب العاجل..!

وفى الثالث عشر من شهر يونية، وبعد رحلة جهيدة إلى تور قطعتها فى ثلاثة أيام، سمعت أن باريس أصبحت مدينة مفتوحة، وأنه ما من فرنسى سوف يقف للدفاع عنها...



ثم أصبحت هذه الهجرة فرارا ، والفرار جلاء . .

الجـــــــلاء

« بينما كانت القوات الالمانية المنتصرة تقترب
من أسوار باريس ، كان آلاف من الباريسيين
يهجرون مدينتهم فى طريقهم إلى كل مكان ، ثم أصبحت
هذه الهجرة فراراً ، والفرار جلاء . . . »

ساد السكون العجيب فى قلب باريس ، واستسلم الذين
عزموا على البقاء فى المدينة الى الطمأنينة التى يخلقها اليأس !

واستحالت الطرق التى تقود إلى مخارج باريس إلى بحر
يعج بالمهاجرين . وكانت الطرقات التى تسير الى الجنوب مقفلة
بمواكب الملايين الذين سافروا بالسيارات، والمركبات، وعربات
النقل، والعجلات، وعلى الاقدام . واجتمعت الخلائق حول
المحطات ينتظرون السفر بقطارات لم يعد لها وجود ، بيد أنهم
كانوا ينتظرون اليوم بأكمله والليل بأكمله ، حتى إذا ما وصلوا
إلى نوافذ بيع التذاكر تيقنوا ان القطارات قد وقف عملها . . !

وفى الشانزليزيه وميدان فوش والجراند أرميه ، وضعوا مركبات الاتوبيس على أبعاد متقاربة ، وهى مائلة على جنوبها، وذلك ـ كما قيل ـ لتمنع الطائرات الألمانيـة الحاملة للجنود من الهبوط فى تلك الميادين ، لأن قسم الخدمة السرية قد وصل إليه ان الألمان عزموا على النزول فى باريس من الجو . وفى المساء رفعت هـذه السيارات من أماكنها واستعيض عنها بعربات الأتربة والفضلات .

ولم يدر أحد ماذا صنعوا بسيارات الاتوبيس هـذه ، التى يبلغ عددها فى باريس نحوا من خمسمائة سيارة ، والتى كان من الواجب ولاشك أن تستخدم فى نقل بعض أولئك الآلاف من المهاجرين الذين هربوا على أقدامهم أو على مركبات الخيل الوئيدة . فاقفلوا الطرق فتعذر السـير عليهم وعلى أصحاب السيارات سواء بسواء .

ولكنه فى ذلك اليـوم لم يكن أحد يفـكر فى شىء ، بل تركت الحـكومة الباريسـيين الى نفسهم يفعلون مايروق لهم ، ولم تحرمهم إلا من حق واحد ، هو محاولة الدفاع عن مدينتهم !

وأخبار هذا الجلاء حكاية ليس لها نهاية. لأن لكل واحد من هذه الملايين التى هجرت باريس قصته وروايته. وفى كل رواية لون من الطرافة لا تمل أذن الانصات اليها. بيد أن رواية الصحفى الأجنبى الخبير، الذى صحب الجيوش الفرنسية من الراين إلى أسوار باريس تفوق جميع الروايات طرافة، إذ أنه كان لا ينظر بعين الملهوف الذى أعماه الجزع عن إمعان الملاحظة، وها هو ذا ممثل شركة روتر الأخبارية يروى حكاية خروجه من باريس.

«.... لم يبق إلا ثلاثة منا فى مكتب روتر، حيث قضينا الصباح نحرق الوثائق والسجلات التى قد تكون ذات فائدة للألمان. ثم إننا ذهبنا الى مطعم مكسيم حيث تناولنا آخر وجبة قدمها ذلك المطعم قبل احتلال باريس، وهناك التقينا ببعض مراسلى صحف لندن ومندوب هيئة الاذاعة البريطانية. وكان المطعم الأنيق خاليا بعض الشىء من رواده، ولكن الخدمة فيه لم تكن غير عادية.

وعندما خرجنا إلى شارع روايال وأغلق الباب من ورائنا،

كان جريحان من موقعة السين يجاهدان المسير على أفريز الشارع .

وألفينا فى تلك الساعة المخازن والمقاهى موصدة الأبواب، وخلا الشارع من السائرين حتى خيل الينا أنه ليس حدثاً لو اندفعت فى تلك اللحظة دبابة المانية من ركن شارع روايال ! إذ لم يكن يعرف أحد أى مدى وصل اليه الألمان فى تقدمهم ؛ لهذا رأينا من الحكمة أن نترك باريس فى الغد ، وأن نلحق بقوافل المهاجرين إلى تور .

ولو أن المتاجر قد أقفلت أبوابها كما قلت ، إلا أن القليل من أصحابها فضل أن يستمر فى أداء واجبه . ومن حسن الحظ أن كان بائع اللبن والبدال ممن كنت أتردد عليهما قد فضلا البقاء فى العاصمة ، فاشتريت من الطعام والكونياك ما يكفى لرحلتنا إلى تور فى ضوء ما يجرى فى الطرقات التى احتلتها جموع المهاجرين البطيئة .

ولما كان يوم الثلاثاء ، لم تبق إلا محطة جاردليون مفتوحة الأبواب . إذ أن محطات باريس الأخرى قد امتنعت عن تسيير القطارات من قبل وأقفلت أبوابها . وحتى تلك الساعة

كان كثيرون يجهلون ما يجرى فى باريس ، ولا أقول فى انجلترا بل فى فرنسا نفسها ؛ إذ التقيت بجماعة من السائحين الانجليز كانوا قد وصلوا إلى باريس فى ذلك اليوم نفسه بعد رحلة فى ايطاليا . وعند ما ذهبت هـذه الجماعة إلى محطة جاردليون وبعد انتظار ساعات طويلة ، رفض السماح لهم بشراء تذاكر السفر ، لأنهم لم يحملوا بطاقات تحقيق الشخصية . بيد أنهم اكتشفوا بعد ذلك وسيلة أخرى لتحقيق غرضهم ، فما عليهم إلا أن يجاهدوا فى الوصول الى رصيف المحطة وأن يحتـلوا مكانا فى القطار المسافر دون سؤال أحد أو دفع اجر ما! وامتدت رحلتهم المجانية أربعة أيام حتى وصلوا الى بوردو . وروايات هؤلاء المهاجرين لا تخلو من الطرافة والغرابة ، فقد عرفت صديقا لى تزيا بزى الحمالين وعلى هذا النحو سافر الى حيث شاء !

٭٭٭

حتى اذا كان صباح يوم الأربعاء ١٢ يونيه تركنا باريس فى سيارتين صغيرتين ، وكنا أربعـة من الصحفيين الانجليز . وفوق مقعد سـيارتى الخلفى كدست لفائف الوثائق وآلتين

للكتابة وبعض الأمتعة الضرورية ، ثم قارباً من المطاط رأيت من الجائز أن يكون ذا فائدة عند الهرب من فرنسا فى الوقت المناسب إذا لم يتعطل تقدم الألمان ؛ ولكننى لم أستعن بهذه الوسيلة إذ نسيت بعض أجزاء القارب الرئيسية فى باريس ..

كانت وجهتنا الجنوب . فلما وصلنا بوابة أورليان ، أمرنا رجال البوليس بالوقوف لأن جموعاً كبيرة من الشبان المجندين قد ازدحم بهم ذلك المكان . ولم تكن الغاية من تجنيد هؤلاء الشبان ما بين يوم وليلة أن يرسلوا للاشتراك فى موقعة اللوار ، بل إن الغرض الحقيقى هو إبعادهم من باريس حتى لا يحاولوا تنظيم الدفاع عنها ؛ وأكثرهم من الطلاب ومن إليهم من العناصر الثورية .

وكان السير فى الطريق مستحيلا ، فقطعنا الأميال الخمسة الأولى فى ثلاث ساعات ؛ وكثيراً ما كنا نقطع فى الساعة الواحدة مائة متر ليس غير ، ثم ينفتح الطريق برهة فنتقدم بمتوسط ثلاثة أميال فى الساعة . وكانت هذه القافلة الوئيدة تسير فى صفوف تتكون من ثلاث سيارات أو أربع منها

متجاورة ، فضلاً عن السيارات التى كانت تدلف إلى جانب الطريق وتدور حول الأشجار .

وعند ما أصبحنا فى الساعة السادسة ،كان طول القافلة التى تتقدمنا نحو ميل من السيارات ، وكان خلفنا ميلان آخران من هذه العربات ، عدا ما كان ينضم اليها فى كل ساعة . وعلى هذا النحو كان الجلاء من باريس يزداد شدة يوماً بعد يوم ، فقد بدأ أولا بأفراد الطبقة العليا ، وها هو ذا قد جاء دور الطبقة المتوسطة فالفقيرة من أصحاب المتاجر وعمالها .

وأكثر العربات التى استخدمت فى هذه الرحلة من الجلاء ، هى تلك السيارات التى كانت مهجورة سنين طويلة فى «الجراجات» فكان من بين كل عشر سيارات فى تلك القافلة ست منها خالية من جهاز ابتداء الحركة ، لهذا كان أصحابها دائمى اليقظة والاستعداد . فاذا وقف الركب ـ وهذا ما يحدث كل عشر دقائق ـ أوقفنا المحركات خوفاً من نفاذ البنزين، فاذا ما أرسلت علامة المسير وثب فى تلك اللحظة عشرات الرجال والنساء من السيارات وبأيدهم مفاتيح الحركة ، وهم يديرونها بجزع زائد حتى

تـكل أيديهم . وإذا حدث وعجز أحدهم عن تحريك سيارته ارتفع من الخلف صراخ أصحاب السيارات الأخرى، حتى يضطر الواحد منهم إلى دفعها بذراعيه بما تحمله من أمتعة وحقائب . وقد لا تتقدم بضعة أمتار أخرى حتى تقف من جديد ، وحتى تنشب هـذه المعركة بين السيارات وأصحابها ، وبين المتقدمين والمتأخرين من ركاب القافلة .

ثم أننا رأينا أن ننفصل عن القافلة ، فانحرفنا إلى طريق جانبي فى وسط الحقول والغابات الهادئة الفاتنة ، وهناك كنا ننسى أخبار الحرب حتى نخترق من جديد قرية من القرى المنثورة فى ذلك المـكان .

وعند مستودعات البنزين ، كان أصحاب السيارات يقفون صفوفاً طويلة وساعات أطول ، تنشب فى خلالها المعارك ويشتد الجدل بين الراغبين فى التقدم قبل دورهم .

وعندما وصلنا إلى أورليان بعد رحلة اثنتى عشرة ساعة . قضينا ليلتنا فى السيارة مع مئات من المسافرين فى أحد ميادين المدينة .

ثم انتهى نبأ المسير إلى تور بعد رحلة شائقة فى تلك البرية، وما قاربنا المدينة المائجة بالمهاجرين حتى أحسسنا كأنما كتب عليها « أيها الداخلون: أهجروا آمالكم وأمانيكم على الأبواب ! » إذ كان رجال البرلمان من شيوخ ونواب، ورجال السياسة وكبار رجال الجيش يروحون ويغدون، يفكرون ويتناقشون بلا أمل فى المستقبل .

ونفضت الرقابة وهى فى حيرتها يدها عن الصحف، فأبرقت برسالة إلى لندن تنبأت فيها بأن فرنسا على أبواب هزيمة منكرة على نحو اندحارها المعروف فى عام ١٨٧٠ . وكانت المفاجأة غير منظورة ، حتى أنها ولدت الشك فى لندن، فلم تنشر الرسالة حتى وثقوا من أنها غير مزيفة . »

* * *

وفى فجر ١٤ يونيه دخلت الوحدات الألمانية المصفحة أرض باريس المقدسة، وانحدرت فى شوارعها المهجورة، وكان من بقى من أهل باريس يشاهد هذا الموكب من خلف ستائر النوافذ المقفلة . وعلى أثرها وصل هملر طائراً من برلين



وفى فجر ١٤ يونيه دخلت الوحدات الالمانية أرض باريس المقدسة

يحمل كشفاً بأسماء اليهود البارزين وغيرهم من الشخصيات التى يبحث عنها الجستابو .

وكان السؤال الذى يحار فى الصدور : ماذا سيفعل المنتصر؟ ولكن الألمان لم يتركوا أهل باريس طويلا فى حيرتهم ، لأنه ما أسرع أن تبعت القوات العسكرية مطابخ الميدان، التى كانت أفرانها وأجهزتها تلمع فى ضوء الشمس الغاربة تحمل الحساء الساخنة والخبز ؛ وهكذا أراد هؤلاء الألمان أن يكسبوا قلوب أهل باريس عن طريق بطونهم الجائعة .

ثم بدأت لوحات الدعاية تأخذ مكانها من جدران باريس . وجاء فى احداها « أيها القوم الذين هجرهم زعماؤهم ، ثقوا بالجندى الألمانى ! »

نعم إنه لا ريب فى أن كثيراً من القرى قد هجرها بالفعل رجال الحكومة ورجال الجيش حتى الأطباء ورجال الدين ، ولكنه من سخرية القدر أن يضع أهل فرنسا ثقتهم فى الجندى الألمانى وحده ، لأن أولئك الذين هجروا أهلهم وفروا من أداء واجبهم ، ما فعلوا ذلك إلا تحت تأثير رجال الطابور الخامس الذى نظمه الألمان بحذق ومهارة .

وإلى جانب لوحات الدعاية، ألصقت على جدران الكنائس وأبنية المجالس البلدية ومخافر البوليس المنشورات العسكرية. وكنت ترى العجائز وهن يحكمن وضع نظاراتهن ليقرأن :

« إن المنطقة التي يحتلها الجيش الألمانى ، قد أصبحت تحت ادارة السلطات العسكرية الألمانية. وللحكام العسكريين أن يتخذوا من الاجراءات ما يكفل النظام والأمن فيها . وللجنود أوامر مشددة فى المحافظة على الممتلكات الشخصية ما دام السكان لا ينزعون إلى غير السكينة .

«وإننى أرجو أن يكون للسكان من الحنكة والذكاء ما يمنعهم من أن يقوموا بأى عمل تهورى ، أو أية محاولة إرهابية ، أو أية مقاومة سلبية ضد الجيش الألمانى . وإن القيادة الألمانية ليؤسفها فى حالة وقوع جريمة فردية من السكان أن تتخذ إجراءات التأديب الصارمة ضد الأهلين . وليقم كل فرد بعمله وواجبه ، فانه بذلك يؤدى خدمة لوطنه ولأهله ولنفسه . »

القائد العام للجيش الألمانى

« امضاء »

وكان الباريسى إذا قرأ هذه النشرات المؤدبة ، التى تفيض مجاملة ، هز كتفيه وقال لنفسه « فلننتظر ولنرَ ! » فالمانيا إذا كانت قد عزمت على أن تحكم فرنسا بيدٍ من حديد، فان تلك اليد قد سُترت فى القفاز بمهارة وبراعة .

وكانت رؤية هؤلاء الجنود الشبان ، شُقر الشعور، بقاماتهم المديدة وحيويتهم المتدفقة الذين قيل إنهم اختيروا اختياراً خاصاً ليكونوا خير دعاية للجيش الألمانى ، كانت رؤيتهم تثير غضب المرأة الفرنسية ونقمتها على زعمائها الذين أدخلوا فى روعها أن ألمانيا كانت تموت جوعاً !.

ولكن هؤلاء الغزاة كانوا فى الحقيقة طلائع الغزاة الفاتحين، أولئك الاقتصاديين الذين جاءوا على أعقابهم لغزو فرنسا اقتصادياً .

فهذا الغزو الاقتصادى لم يكن حادثاً طارئاً جاء به الاحتلال العسكرى ، بل هو خطة مدبرة محبوكة ، نظمت قبل ذلك بسنين عديدة . ومن تهكم الأقدار ، أن هؤلاء الاقتصاديين لم يجدوا مكاناً لتدبير مؤامرتهم إلا قصر البربون الذي حوّلته الجمهورية

الثالثة من قبل إلى مجلس لنواب فرنسا !.

ووضع الجنرال اشتركياس الزعيم الاقتصادى لجيش الاحتلال ضابطاً احتياطياً على رأس كل قسم من أقسام ادارته، من أولئك الاخصائيين الذين درسوا مشاكل فرنسا الاقتصادية قبل ذلك بعدة سنين ، فلم تعجزهم مسألة أو يخفى عنهم سر يحتاج إلى الاسترشاد بأحد رجال الحكم المنقرض .

وعلى أعقاب هذا الجيش ، هبطت باريس فرقة من «الفتيات المجندات» بلغ عددها أربعة آلاف فتاة، وكل اليهن أعمال المخابرات. وكانت أجسامهن الكاملة تلفت النظر والملاحظة ، أما مهمتهن فكانت الاشراف على جميع الخطوط التليفونية والبرقية ، لمراقبة المحادثات التى قد تكون موضعاً للشبهة .

وهكذا نشر الألمان شبكتهم بمهارة ودقة وحذق فوق باريس .

ذهبوا إلى فيشى

« فى ٢٢ يونيه سنة ١٩٤٠ أمضت فرنسا ميثاق الهدنة مع ألمانيا . واستقرت الحكومة الفرنسية فى فيشى ، وأعلن فيها الغاء الجمهورية وتولية بيتان رئيسا للدولة ، وهكذا أصبحت فيشى عاصمة لفرنسا غير المحتلة . . . »

كانت ماريان * كالمريض اشتدت عليه العلة ، فحملها أطباؤها إلى «تور» ، ولكن الحمى التى أصابتها فى باريس لحقتها فى تور ، فساروا بها إلى «بوردو» لعل هواء البحر ينفع العليل الشاكى ؛ ولكن العليل الشاكى ازداد حاجة إلى الدواء ، فسار الركب إلى «كليرمون فيران» ومن ثم انتهى المطاف إلى فيشى ، لعل ماءها الذى قيل إنه يشفى سبعين داء يشفى هذه المريضة العزيزة .

ولفرنسا فى عنق فيشى دين قديم ، فقد منحتها الشهرة ، وحبتها

* اسم فتاة تتمثل به فرنسا

المجد ، فعليها أن ترد اليوم دينها القديم، وها هى ذا قد سعت اليها ماريان نفسها تشكو المرض وترجو الشفاء .

وهكذا قدر لاسم فيشى أن ينتقل من كتب الأدلة إلى سجلات التاريخ : فلم تعد جنائنها ولا فنادقها مسرحا لقصصي يصور فيها أحلام الغنى أو نزق الشباب كما كانت من قبل ، إذ استحالت مابين صبح ومساء إلى مصنع كبير لرجال السياسة ، اشتد فيه ضجيج الآلات واختلط بصراخ العمال .

* * *

إذا ذكر تلاميذ المدارس فيشى فى الغد ، فانهم سوف يذكرون تاريخ اليوم العاشر من شهر يوليه سنة ١٩٤٠ . ففى هذا اليوم شهدت فيشى مأتم دولة عاشت جيلا كاملا ، فقد سلخت الجمهورية الثالثة سبعين سنة طويلة ، كما شهدت فيشى مولد دولة جديدة لم يعرف أحد حقيقة أمرها بعد .

ففى صباح ذلك اليوم المشهود ، غصت ردهات فنادق المدينة ، كما غصت شوارعها وميادينها بحلقات رجال السياسة

يتشاورون ويتهامسون أو يتناقشون فى اضطراب ظاهر ، ونزع بعضهم إلى الوحدة فساروا فرادى تتنازعهم عوامل الريب والشكوك . كان كل شىء فى فيشى ينبىء عن أحداث جسيمة سوف تقع ، ولكن أحدا لم يكن يعرف ماهى ؟ حتى أولئك الذين اشتركوا فى تمثيل الرواية نفسها ، لم يكن لديهم من الوقت للتفكير مليا فى الدور الذى خصص لهم .

واستحال الكازينو الكبير إلى شبه دار للبرلمان ؛ وفى الساعة الثالثة اجتمع مجلس الشيوخ الفرنسى للمرة الأخيرة ، ولم تمض ساعتان حتى نُزعت الصفة السياسية عن عشرات من هؤلاء الشيوخ . فخرجوا من أبواب الكازينو بلا عمل ولا مستقبل منظور . وكان اجتماع أولئك الشيوخ قصير الأمد ، خاليا من تلك المظاهر البراقة ، ولكنه كان خطير الآثار ، ففيه قضى على نظام عاشت فرنسا فى ظله طويلا ، وفيه أعلن المرشال بيتان رئيسا للدولة الفرنسية الجديدة .

لقد كان عجيبا أن يتمخض هذا الاجتماع الذى كان خلوا من جميع مظاهر العظمة التى عرفت عن الحياة الفرنسية العامة

عن هذه الآثار التاريخية ! وإن الناظر إلى هؤلاء المجتمعين، من الشرفات التى تطـــل على بهو الاجتماع ليستعرض أمام عينيه حوادث التاريخ العظيمة التى زلزلت بعدها دول وثلت عروش، ويسائل نفسه : أجرت فى الماضى تلك الأحداث الجسام فى مثل هذا المكان المجهول ، وفى حضرة مثل هذه القبضة من الرجال ذوى الرؤوس الصلعاء والذقون البيضاء المرسلة ! ؟

* * *

أصبحت «أوتيل دى بارك» قلب فرنسا الجديدة. فقد تخيرها المرشال سكنا له وديوانا لحكومته الوليدة . واستقل كل وزير بغرفة من غرفات ذلك الفندق باستارها الحريرية ، وصورها الزاهية . وكان يلتقى فى ابهاء الفندق رجال السياسية بالقواد القدماء ، وسفراء الدول برجال الصحافة الذين تعقبوا الحكومة الفرنسية إلى فيشى .

وكانت من عادة المارشال أن يجلس بعد العشاء فى قاعة الفندق حيث يتناول قدحه من القهوة ، وهو يحيي أو يرد تحية الجالسين حوله بأدب جم . ولم يكن غريبا أن تجد رئيس الدولة

الفرنسية يقضى المساء فى قاعة فندق يطرقه كل غريب ؛ ففيشى لم تكن لتتسع لأكثر من هذا .

فأولئك الذين كانوا يعيشون فى عزلة بالأمس وراء الغرفات المقفلة والقاعات الموصدة ، ولا تقع عليهم أبصار الجماهير إلا بعد الالحاح والرجاء ، وبعد الهتاف والنداء ، أصبحوا يقنعون بالغرفة الضيقة والمقعد الواحد بين جماعات النازلين !

وكنت ترى فى بعض أركان القاعة ، لافال يهمس فى أذن أحد الوزراء ، وكنت ترى أحد السفراء يصب القهوة لبعض أضيافه ، كما كنت تقابل نبيلة فرنسية تشكو من أنها قضت أسبوعا كاملا وهى تنام جالسة على مقعد . . .

وكان المرشال أطعن هؤلاء جميعا سنا ، ولكنه كان يبدو أشد صبوة وشبابا من كثير من تلاميذه ومريديه ، فمن الخطأ أن يقال إن بيتان شيخ أثقلت كاهله الأيام وأصبح أعجز من أن يقبض على زمام هذه الدولة .

ولم يكن بيتان راضيا بمقامه فى «أوتيل دى بارك» بل كثيرا

ما صرح منذ أن هبط فيشى بأن المكان تنقصه الكرامة ليكون ديوانا لفرنسا . وكان بادى العزم على أن ينتقل إلى فرساي ، حتى أنه أمر بحزم حقائبه وأعلن الألمان بارادته ، ولكن الأيام مرت والأسابيع تتابعت و«أوتيل دى بارك» مافتئت مركز الحكم فى فرنسا المحتلة ؛ ولم يكن من مظهر يدل على شخصيتها الجديدة الا جنديان يحرسان باب المصعد .

وكانت تدور فى قاعات الفندق الاشاعات . فمن قائل إن الحكومة ستنتقل فى القريب العاجل إلى باريس ، ومن قائل إن الألمان سيستقلون بالضفة اليمنى من السين عند باريس ، على ان تحتل الحكومة الضفة الغربية ، فإذا صحت الاشاعة فإن قنطرة الكونكورد مثلا سوف يحرسها من جانب جنودٌ من الألمان ، بينما يقف على رأسها الآخر حرس من الفرنسيين . . !

* * *

وفى الرابع عشر من شهر يوليه سنة ١٩٤٠ احتفلت فرنسا المهزومة بعيد الحرية ، احتفلت به فيشى ذات صباح حُجبت شمسه ، وحبس هواؤه .

وإن كثيرا ممن شهدوا هذا الاحتفال الحزين ليذكرون مثل هذا اليوم من عام ١٩٣٩ عندما وقف آلاف الباريسيين على أرصفة الشانزليزيه تحت ظلال مئات الأعلام المثلثة الالوان ، عندما وقفت تلك الآلاف لتستعرض الجيش الفرنسي الذى لم يكن قد ذاق إذ ذاك طعم الهزيمة . وكانت فى ضوء ذلك الصباح الباهر ، تلمع أوسمة ضباطه ويزهو فرسانه وتبرق مدافعه ودباباته ؛ كان كأنه عائد من فتح جديد أو نصر مبين . كان ذلك الجيش مزهواً بنفسه ، كان يتحدى أولئك الألمان على ضفة الراين الغربية الذين يلوحون بالحرب ولكنهم أعجز من أن يوقدوا نارها ! كان ذلك اليوم كبعض الأحلام !

.... وفى الساعة الحادية عشرة من الصباح ، وفى بعض ميادين فيشى ، وإلى مقربة من « أوتيل راديو » التى استحالت مستشفى عسكريا ، وقف المرشال بيتان بطل ڤردون أمام النصب التذكارى فى الحرب العظمى وهو منكس الرأس ثم وضع باقة من الأزهار تحية لاولئك الراقدين فى سهول المارن والفلاندرز .

وفى كل ركن من أركان الشوارع التى تقود إلى الميدان ،

وفى كل نافذة تطل على النصب التذكارى ، وعلى كل سقف من السقوف ، التصقت مئات من الوجوه ، وحملقت مئات من العيون إلى الجنـدى الشيخ ، رئيس الدولة الفرنسية الجديدة ، وقد أحاط به أعضاء وزارته .

وقطعت ذلك السكون الحزين ، همهمة لم يكن أحد ليعرف سببا لها ، ولوحت أذرع هائجة مشيرة إلى إحدى النوافذ ، وقال قائل إنه لمح وجه «بلوم» ! ولكن سرعان ما اختفى الوجه ، وأرتجت النافذة ، وساد السكون مرة أخرى على المكان .

ثم برزت من بعض الطرق المجاورة فصيلة من الجنود ، سارت وهى مرفوعة الرأس شاكية السلاح أمام المرشال ، فلمعت عيون الواقفين عند رؤية الأعلام الفرنسية ترفرف فوق رؤوسهم . وتبعت تلك الفرقة ، سرية من البحارة بأزيائهم الزاهية وسراويلهم الفضفاضة وهم بضع عشرات . ولكنها كانت تمثل فكرة ، بل إنها كانت تمثل الأمل الذى يحار فى صدر كل فرنسى . . .

* * *

.. ولو أن مأتم الجمهورية الثالثة قد انفض ، ومضت عشرة أيام على يوم وفاتها ، الا أن مسيو « لوبران » رئيس الجمهورية الموؤدة كان ما زال نزيلا على فيشى . كان هنالك بدون مهمة وبدون غاية . لقد قيل إن سفره من فيشى أمر مرغوب فيه ، ولكنه لم يفعل شيئا ، بل بقى إلى جوار الذين خلعوه . . .

لوبران ، ذلك الرئيس الأنيق بشعره الاشهب وقامته المديدة ، ذلك الذى عاش أعواما يؤدب المآدب فى قصر الاليزيه ، ويستقبل الملوك بشريطه الحريرى الأحمر الذى كان يزين صدره ، ذلك الذى عاش سنين طويلة يصافح سفراء العالم أجمع ، وهو واقف على رأس سلم فرش بالابسطة الحمراء !

لوبران ، الذى سجلت له آلاف الصور وهو يفتتح معارض الربيع ومتاحف الفن ، لوبران هذا قد أصبح بعد اجتماع الكازينو كالتفاحة المحترقة لا يقدر رجال فيشى على بلعها وازدرادها ، وليس لهم أن يحتفظوا بها ، ولا أن يطرحوها بمهانة . . . !

وكان على المرشال أن يجمع رأيه على أمر . ففى ذات يوم ذهب بيتان لزيارة لوبران . ولكن المرشال بدلا من أن يبدأ

مضيفه بتحية الاستقبال قلب الوضع فبدأه بسلام الوداع .
وكان على لوبران أن يفهم مغزى هذه الزيارة ، وأن يترك فيشى إلى أصحابها ، لينزوى فى قصر « شازرول » الريفى بعيداً عن عواصف السياسة والحرب . ثم جاء دور بيتان نفسه فنزح إلى « پافيون سفينييه » بعيداً عن ضوضاء « أوتيل دى بارك . »

* * *

لم يعد فى فيشى مكان لقادم جديد ، حتى إن مقاعد الحدائق فيها وجدت من يحتلها إذا أمسى المساء . وكانت فنادق الطبقة الثانية والثالثة تنذر نزلاءها بأن لها الحق فى أن تستضيف عليهم فى غرفاتهم من تشاء إذا لزم الأمر .

أما سفراء الدول فقد اجتمعوا فى فندق « الامباسادير » فحقق بذلك أصحابهُ الأملَ الذى من أجله اختاروا له هذا الاسم ، فأصبح بحق مضيفة السفراء .

واحتلت بعض مكاتب الحكومة مبنى الحمامات الذى طالما عرف طريقه روادُ الاستشفاء . فكان الزائر يدخل على موظف الحكومة الجديدة وهو يعمل تحت أنبوبة المياه الرشاشة ، فى

غرفة للحمام بجدرانها المصنوعة من القيشانى الناصع البياض ، وفى جواره ثبت جهاز التلفون إلى حافة المغسل ، كما تدلى معطفه العسكرى من حاملة المناشف . . !

فحكومة فيشى ، كانت أشح من أن تلمس شقفة من ذلك القيشانى، وأبخل من أن تغير وضعاً من أوضاع ذلك البناء الجميل. فقد يقودك الدليل إلى غرفة جلس وراء بابها ضابط عظيم زين صدره بالنياشين وبأوسمة البطولة ، إلى غرفة كتب على بابها « حمام خاص للسيدات ! »

لقد كانت الرواية التى تمثل فى فيشى مليئة بالمفاجئات تثير الهم ، وتستثير الضحك .

العـــــودة

« لم يمض شهر أو بعض شهر على احتلال باريس ، حتى أخذ المهاجرون يعودون جماعات إلى مدينتهم ، وها هى ذى كاتبة أمريكية تصف مواكب العودة إلى باريس .

« .. أخذ أهل باريس يعودون إلى مدينتهم بعد تلك الهجرة الخاطفة منذ شهر يونيه الماضى .

وأخذت الحياة تدب من جديد فى الطرق التى تقود إلى العاصمة؛ فمواكب السيارات، وعربات الخيل،وعربات الأطفال، والدراجات، تسابق بعضها بعضاً، وقد حمّلت بتلال من الأمتعة والحقائب والوسائد وحوائج البيوت، حتى أقفاص الطيور التى اشتركت مع أصحابها فى ذلك الجلاء .

وفى فجر يوم من الأيام الأخيرة من شهر يوليه سنة ١٩٤١ تركت فيشى إلى باريس فى سيارة وُسقت إلى قمتها باللفائف

والسلال والحقائب، حتى إذا وصلنا إلى «مولان» وقفنا في حشد من السيارات ننتظر تفتيش رجال السلطة الألمانية .

وعند ما عرجت إلى قنطرة المدينة ، صاد نظرى لأول مرة العلمُ النازى مرفرفاً على أرض فرنسا ! وعلى رأس جسر مولان فحص جندى المانى فى لباسه الأشهب أوراقنا، ودلنا بلغة فرنسية مبتورة على الطريق المؤدية إلى باريس ؛ والتى كتب عليها باللغة الألمانية « إلى باريس »

وهكذا قدر لى أن أشهد على أرض هذه البلاد التى أحببتها مشهداً ما كنت أحلم أن أراه يوماً من الأيام ، وكان عسيراً علىّ أن أحبس دمعات انهمرن من عينى .

ومنذ تلك اللحظة استحال كل ما حوالىّ إلى عالم ألمانى ، فالسيارات العسكرية الرمادية تملأ الطرقات ، وجموع الجنود من الألمان بملابسهم الصفراء منتشرون فى كل مكان ، فى المدن والقرى ، فى الشوارع والمخازن التجارية ، كأسراب الجراد تغطى وجه الأرض وتلتهم كل شىء .

وكانت جموع هؤلاء الجنود تفيض قوة وحيوية وشباباً ،

بقاماتهم المشوقة ووجوههم الصبوحة ، وشعورهم الشقراء .
وما أشد الفرق بين ذلك الألمانى الذى عرفته أيام دراستى فى ألمانيا ، وبين هؤلاء الفتية ! حتى إن الفرنسيين قد أطلقوا عليهم اسم الرجل الكامل Correct ، بل إن هذه الصفة أصبحت علماً على الجندى النازى . !

٭ ٭ ٭

أضحى الطريق وكأنه مقبرة للسيارات ، بحطام العربات التى تناثر زجاجها واحتوتها الحفر . ولكن الأمل فى الحياة بدأ ينفخ فيها ، فانتفخت إطاراتها بالهواء ، واتجهت رؤوسها جميعاً إلى أفق واحد : إلى باريس ! بعد أن هدأت ثورة النفوس التى أذهلها الهلع والخوف ، وقتلتها الاشاعات والدعاية ، ففر أصحابها لا يلوون على شىء . .

وكنت ترى الفينة بعد الفينة ، قبرا نثرت عليه الأزهار إلى جوار كومة من الحديد والنحاس علاها الصدأ . ثم تمر بحطام المدافع المهجورة التى سلطت فوهاتها الفارغة إلى السماء ، وقلبت على جنوبها إبان ذلك التقهقر السريع .

ثم تمر بحطام طائرات عذراء ماعرفت الطيران أو القتال

من قبل، فبدت من بعيد كأنها اشلاء بعض الجوارح الهائلة عصفت بها الريح ولوحتها الشمس .

وإن هذه المناظر لتثير أمام الخاطر صوراً لتلك الأحداث الفاجعة، فما من منزل أو شجرة أو منحنى طريق ، إلا ويحمل آثار ذلك الصراع . وما من مكان صمد فيه الفرنسيون إلا وكانت آثار ذلك الكفاح بادية حوله، تدل على مبلغ الضربة القاصمة التى أنزلها العدو بظهورهم . فعلى ضفة اللوار عند « نيفرس » استحالت البيوت كومة من الأحجار . . .

* * *

وبعد ظهر ذلك اليوم وصلنا أسوار باريس .

وكان بابها الذى مرقنا منه يحرسه جنديان من الألمان ، فحصا أوراقنا الواحد تلو الآخر .

وها نحن أولاء من جديد فى باريس، التى أصبحت فى عهدها الحاضر معسكراً هائلا ، تمسح أرصفتها ملايين من الأحذية السوداء بقرقعة مزعجة ، وترفرف على أبوابها أعلام الصليب المعكوف ، وتدل على الطريق فى ميادينها لوحات نقشت باللغة الألمانية . . !

اشاعات ودعاية

« كانت الدعاية الألمانية المنظمة ، جيشاً ثانيا مهد السبيل إلى سقوط فرنسا وعمل على استسلام باريس ، وكانت الاشاعات سيفا سلطه الفرنسيون على رؤسهم بأنفسهم أشد فتكا من تلك الدعاية . . »

قبل أن تسقط باريس بشهور طويلة ، كانت مطابع ليبزج تعد لوحات الدعاية الانيقة الملونة ، التى غطت جدران باريس بعد استسلامها بساعات !

فالدعاية كان لها نصيبها فى محنة فرنسا ، والدعاية كان لها فعلها فى استسلام أهل باريس بعد إخلائها ، وفى رجوع الباريسيين إلى مدينتهم بعد أيام معدودات من احتلال الألمان لها . تلك الدعاية الدقيقة المنظمة التى لم تكتشف سبيلا إلى قلوب أهل باريس الا وغزتها منه ، وبنجاح فى أكثر الظروف .

وكانت الاشاعات أمضى أساليب الدعاية حداً ، فالفرنسى

بطبيعته ثرثار ميال إلى الافصاح عن رأيه ومبلغ علمه. وهيأ الغزاة له هذه الفرصة والخطر بعيد عن باريس، فمهد لهم بذلك السبيل إليها ؛ فكانت باريس تطفح بأغرب الاشاعات قبل سقوطها، تلك الاشاعات التي ما كان ليصدقها عاقل ؛ حتى إذا استسلمت نشبت حرب الاشاعات فيها أشد عنفا وخطراً . والانسان إذا ما عجز عن أن يوفق بين ما يقال وما يسمع، استسلم إلى القضاء وترك مقاليد أموره إلى الأقدار، وهذا ما فعله أهل باريس.

وأقدم هذه الخرافات التي لعبت دورا هاما في سقوط فرنسا، حكاية مناعة خط ماجينو . لقد كان ذلك الايمان المطلق الذي استولى على نفوس الفرنسيين نكبة عليهم . ولم تقابل الدعاية الألمانية هذه الدعوى بالتمحيص أو التكذيب، ولم يعملوا على أضعاف روح الثقة بمناعة هذا الخط واستحالة غزو فرنسا من جانب الراين الآخر، بل عمل الألمان بتجنبهم الخوض في هذه الدعوى على تمسك الفرنسيين بها، فاستسلموا إلى الأمل الكاذب.

وعندما بدأت الحرب على ضفاف الراين، وانتهت إلى ذلك الخمول الذي ساد الجبهة الغربية شهورا، كانت الدعاية الألمانية

جادة فى بذر روح التشكك فى نفوس هؤلاء المحاربين ، تلك الدعاية السلبية البتارة ؛ إذ أنهم تركوا الفرنسيين إلى أنفسهم ليروجوا ماطاب لهم من الاشاعات .

كانت تنقضى أيام فى الجبهة الغربية دون أن يقطع ذلك السكون تبادل اطلاق النار ، ولم يعمدالألمان إلىالبدءبالعدوان وإثارة حفيظة حراس خط ماجينو ، بل كانوا يعملون جاهدين على خلق جو من السلام والصفاء ، فلم يفتروا عن الغناء والعزف ، وعن الاستحمام فى ماء النهر وغسل ملابسهم ، وهم على مرأى من حراس الاستحكامات الفرنسية . بل كثيراً ما استيقظ الفرنسيون على أصوات مكبرات الصوت تناديهم من ضفة الراين الغربيـة وتصيح بهم :

« نحن لا نريد أن نحاربكم ؟ أين هم الانجليز ؟ إنهم مع زوجاتكم فى باريس . . . »

قد تكون هذه دعاية سمجة أو صبيانية ، ولكن كان لها أثرها فى نفوس الفرنسيين ، عندما أخذ الشك يتطرق إلى نفوسهم متسائلين : لماذا نحارب ؟ لماذا نبدأ هؤلاء بالعداوة ؟ ليس

هؤلاء الألمان بسافكى الدماء كما قيل لنا ... » . كانت تلك فلسفة حراس خط ماجينو حتى اليوم الأول من شهر يونيه ، ولكن ذلك الشهر لم ينتصف حتى كان الألمان فى باريس ، وحتى كان اختراق ذلك الحصن الذى قيل إنه لا يزلزل !

* * *

وعند ما بدأ الهجوم الألمانى الكبير، طارت فى سماء فرنسا الاشاعات وأصيبت الجماهير بحمى الوطنية ، واستحالت الحمى إلى هستريا فى أشد درجاتها، حتى تملك الفزع والرعب النفوس.

كانت أشد الاشاعات فعلا فى تلك الأيام خطر رجال المظلات ، فقدأذاعت السلطات الرسمية بأن على المدنيين واجب اليقظة حيال رجال المظلات من الألمان، والقبض عليهم، وتقديمهم إلى السلطات العسكرية . فكان من نتيجة ذلك أن ألقى القبض على كثير من المهاجرين إذا ما لجأوا إلى مدينة أو قرية بعيداً عن خطر الغارات الألمانية . بل ألقى القبض على كثير من الضباط ورجال الشرطة أنفسهم، وعلى المراسلين الحربيين الذين كانوا

بطبيعة عملهم يتقدمون الجيوش . و روى هؤلاء المراسلون الحكايات العجيبة عن أساليب القرويين فى صـــيد الغرباء المشبوه فى أمرهم .

كان صحفى انجليزى فى قطار هاجمه الألمان ، عند ما تقدم اليه أربعة جنود بصحبة ضابط وألقوا القبض عليه . وكان من المستحيل أن يقتنع هؤلاء بحقيقة الأوراق التى كان يحملها ، بما فى ذلك براءة وسام «الليجون دونير». بل كانت كثرة هذه الأدلة وسمو قيمتها الرسمية داعياً إلى زيادة التشكك فى حقيقتها . وكان خلو ملابس الصحفى ممايدعو إلى الريبة فى أمره، جعلت اولئك الجنود يقررون بثقة تامة أن هذا دليل على براعته فى فن التنكر ، ويجمعون أمرهم على إعدامه على الفور . بل إن ذلك الضابط بلغ به تحمسه أن أمره بالوقوف إلى الحائط حتى يكون له شرف إطلاق الرصاصة الأولى عليه ! ولم ينجُ ذلك الصحفى من مخالب قانصيه إلا عند وصول رجال الشرطة الذين أرسل فى طلبهم .

وأعجب من هذا مارواه صحفى فرنسى يمثل جريدة الفيجارو،

ذكر هذا الصحفي وكان ضعيف السمع ، أنه دخل قرية أثناء التقدم الألماني ممتطياً ظهر عجلة، إذ لم تكن هنالك وسيلة أخرى للنقل . وحدث أن أغارت بعض الطائرات الألمانية على تلك المنطقة عند ما طرق باب مطعم القرية ، فسرعان ما تجمع القرويون حوله وأجمعوا رأيهم على الفور على أنه ألماني من رجال المظلات . ولم تجد براعته اللغوية كثيراً لنفي التهمة عنه، بل إن إحدى القرويات صاحت وقد اعياها الصبر .

« إن الصحف أمرتنا أن نقتل من نقتنصه من رجال المظلات . . » وصاح جزائري من الجنود بعد أن اقترب منه :

« إنني واثق تمام الثقة من أنه غريب ، لأن لهجته ليست فرنسية أصلية ! »

ثم جاء رجال الشرطة وحملوا المتهم إلى المخفر . وكان الحماس قد تملك جميع النفوس، حتى لم يجد جاويش المخفر حاجة إلى مراجعة أوراق ذلك الصحفي المسكين .

وعند تفتيشه عثروا على علبة بها دواء لعلاج الامساك !

عند ذاك صاحت الجماهير :

« أنه يحمل مادة مفرقعة . . ! »

وصاح المسكين :

« هاكم دليل براءتى . . . »

ثم قدح عود ثقاب ليثبت لهم أن ما يحمل ليس إلا دواء.

غير أن الجماهير الثائرة أطبقت عليه فى الحال وهى تصيح ! .

« فليقتل فى الحال ، إنه يريد تدمير المخفر ومن فيه . . »

* * *

ولو اقتصرت هذه الفوضى على الجماهير لهان الأمر ، ولكن الادارة الحكومية نفسها كانت لا تقل اضطراباً وارتباكا . وكان من تشديد الرقابة على الصحف أن عاش الناس على فتات الأخبار ، وما يرويه اللاجئون من حكايات أقرب شىء إلى الخرافة لتثير الفزع وتستدر العطف عليهم .

وجهل أولئك المسئولون أن فرنسا وهى فى شدتها ، فى حاجة إلى إذكاء روح التضحية بنشر حكايات البطولة وأخبارها ، لا إلى البلاغات الرسمية الجامدة . لهذا كانت الحياة فى باريس والخطر لا يبعد عنها إلا ثلاثين ميلا لا تفترق عن حياتها القديمة .

وكان الجنود الذين ينزحون اليها من جهة القتال للراحة ، يعجبون كيف بلغ الاستهتار بأهل باريس هذا المبلغ . فاذا عادوا راحوا يروجون الاشاعات ويزعزعون عقائد الجنود فى قضيتهم .

لماذا نحارب ؟ ولماذا نضحى بأنفسنا بينما أهل باريس يستمتعون بحياتهم جد الاستمتاع، كأن هذه الحرب لا تعنيهم، وكأن هذه التضحية التى نبذلها ليست دفاعاً عن باريس نفسها..؟

وكانت الشدة بالغة فى الرقابة على الصحف ، فكان للرقابة أن تحذف سطوراً برمتها أو فقرات بأكملها من أخبار الجرائد ، لذلك كثيرا ما كانت هذه الأخبار المشوهة المبتورة سببا لضياع الحبكة المنطقية ، فتجعلها موضعا للشك فى حقيقتها ومجالا للتخمين والحدس .

حدث مرة ، أن أرسل صحفى أجنبى، وصفا عن الأضرار التى نجمت عن غارة بعض الطائرات الألمانية على الريف ، واستطرد إلى وصف غارة أخرى على قطار لم تصب من جرائها إلا بضع دجاجات وأرنب كانت فى قفص معد للارسال . فحذف الرقيب

قلب الحقيقة فبدا الخبر غريبا عن غارة ألمانية عنيفة على عدة مدن وقرى فرنسية لم تتمخض إلا عن قتل بضع دجاجات وأرنب واحد .

فاذا قرأ الباريسى مثل هذا الخبر الذى لا يعقله عاقل أحس بأن هنالك سرا وراءه ، وأن الحقيقة قد أخفيت عنه ، فلا عجب إذا لجأ إلى تصيد الاشاعات ليشبع رغبته وتطلعه .

وبينما كانت هذه الشدة فى الرقابة على الصحف تدفع الباريسيين إلى نسج الاشاعات وابتكارها ، أهملت السلطات وسائل الدعاية الأخرى أو أرخت قبضتها عنها .

فالاشراف على الاذاعة اللاسلكية لم يكن بالشدة الواجبة ، فقد ذكر مراسل انجليزى رغب فى إلقاء حديث له عن رحلة قام بها فوق الخطوط الألمانية ، ان أحداً لم يسأله عن مستنداته ليتحقق من شخصيته ، وأن أحداً لم يراجع حديثه قبل إلقائه ، وان أحداً لم يستمع إلى حديثه حتى يقطعه عليه إذا خرج عن الحقيقة ، بل اكتفى رقيب الاذاعة بتقديمه إلى المستمعين !

وكان من الجائز أن ينتهز هذه الفرصة أحد رجال الطابور الخامس ، ليعلن أن الألمان على أبواب باريس مثلا ، أو أن



أيها القوم المهجورون ، ثقوا بالجندى الالمانى !

باريس قد سلمت بالفعل، بينما كانت معركة فرنسا فى شدتها ؛ فلو حدث هذا لكان الخطر الذى يتمخض عن مثل هذه الاذاعة محالا تلافيه. وقد نسى المسئولون أن أول مافعله الدعاة الألمان عند حدوث الانقلاب الأخير فى النمسا أن استولوا على دار الاذاعة فى ڤينا .

***

وبعد سقوط باريس، أخذت الاشاعات لونا جديدا ، لأن أساليب الدعاية قد اختلفت كذلك. فجدران باريس كانت ميدانا لحرب الدعايات . فكانت المنشورات القديمة التى تدعو أهل باريس إلى التجنيد أو التى تشيد بأخبار النصر المنتظر ، مازالت منسية فى بعض الأركان المهجورة ، وإلى جانبها المنشورات الألمانية التى تدعو أهل باريس إلى التفاؤل وإلى الثقة بالنظام الجديد !

لم يترك الألمان حادثا يمر دون أن يصوغوا منه مادة للدعاية وخاصة إذا كان الغرض منه تمكين روح العداء بين الفرنسيين وبين الانجليز ، حلفائهم الأقدمين .

فعندما هاجم الانجليز الأسطول الفرنسى فى وهران ، نجحت

الدعاية الألمانية فى إثارة حنق الفرنسيين وغضبهم ، فألصقت آلاف من لوحات الدعاية على الجدران وفى محطات المترو وفى أبهاء المسارح ، وقد نقشت عليها صورة بحار فرنسى غارق فى الدماء الحمراء وهو يرفع بذراعه اليمنى علماً فرنسياً ممزقا ؛ وكتب تحت هذه الصورة بخط كبير :

« لا تنسوا وهران ! »

ومع ما أثارته هذه الصورة من الغضب والحنق فى نفوس أهل باريس ، فانها لم تعدم الباريسى المهزار الذى كتب تحت لوحة من هذه اللوحات «لاتنس لباس الاستحمام !»

وعندما فشل الجنرال ديجول فى النزول إلى داكار بمساعدة البريطانيين ، اتخذت الدعاية الألمانية ذلك الحادث فرصة لاثارة روح العداء بين فرنسا وبريطانيا . فنشر ضابط فرنسى اسمه قسطنطين مقالا فى إحدى صحف باريس بايعاز من السلطات الألمانية يحض الفرنسيين على إعلان الحرب ضد بريطانيا .

وفى مناسبة أخرى ، ظهرت على جدران باريس لوحات رسمت عليها صورة أم فرنسية تبكى على قبر ابنها ، بينما ظهر من

بعيد وجه ضابط بريطانى يبتسم استهزاء".

وتفرض الرقابة الالمانية عقابا صارما على من تسول له نفسه تشويه اعلانات الدعاية هذه أو تمزيقها ، وإذا تعذر اكتشاف المذنب وهو ما يحدث فى أكثر الأحيان ، تفرض على الحى أو المدينة غرامة قد تبلغ خمسة عشر ألف فرنك . وإذا كان الحى فقيرا قد يتعرض أحد رجاله البارزين إلى الحبس تأديبا لأهل الحى جميعا .

ومنشورات الدعاية الانجليزية كانت تجد سبيلها كذلك إلى أهل باريس ، ويقولون إن طائرات سلاح الجو البريطانى هى التى تلقى بهذه المنشورات على أرض فرنسا . وفيها يثيرون حفيظة أهل باريس ضد الألمان ويعلنونهم بأن مدينتهم أصبحت هدفا عسكريا لوجود جيش الاحتلال الألمانى فيها . كما ينصحون الفرنسيين بعدم السفر فى القطارات والبعد عن المنشئات العسكرية وكان من يكتشف وفى حوزته منشور من هذه المنشورات سرعان ما تتخطفه ذراع الجستابو الطويلة فى الحال.

* * *

ولكن العجيب أن أهل باريس ما كانت لتفزعهم هذه الاشاعات ، كأنما حب المفاجأة قد أخذ عليهم نفوسهم . فعندما كانت تدور الاشاعات بأن باريس ستكون هدفا للغارات البريطانية العنيفة ، كنت تسمع الباريسيين يرددون :

«سوف ننتظر لنرى ماذا يكون من أمرها !»

كأن الناس قد سئمت الهجرة والجلاء ، وعزموا عزما أكيدا على البقاء فى مدينتهم تحت كل الظروف والأحوال .

وعندما كانت الاذاعة البريطانية توسع لهم فى الأمل بالمستقبل، وتدعوهم إلى العمل على مناوأة الاحتلال ، لم يكن لهذه الدعوة صدى عملى بين طبقات الشعب العاملة ، فالأم التى كان عليها أن توفر الغذاء لصغارها ، لم تكن لتعيش على الآمال ، لأن حاجتها المادية أقوى من كل دعاية كلامية .

ومن أغرب الاشاعات التى انتشرت فى باريس ، أن الانجليز قد عمدوا إلى حماية شواطىء المانش بسكب مزيج من البترول والاثير فوق مياهه ، حتى إذا حدث هجوم ألمانى على بريطانيا ، التهمت النيران أساطيل الغزاة .

وكان العائدون إلى باريس ، يروون الحكايات والقصص التي يعوزها الدليل والاثبات ، فيذكرون أنهم رأوا جثث الجنود الالمان محترقة في العراء ، ويعللون وجودها بشتى الأسباب . وكان إذا حدثت فرقعة مثلا ، أو أصدرت السلطات أمراً جديداً في باريس ، تنتشر الاشاعات وتتضارب الأقوال ، كما حدث عندما منع الألمان دخول غابة بولونيا على المدنيين ، فدارت الاشاعة بأن حوادث جساما تجرى في تلك الحدائق ؛ من ثورة بين جنود الاحتلال إلى عمليات تطهير تستعمل فيها المدافع الرشاشة !

ومن الاشاعات التي كثيرا ماراجت في باريس أن هملر قد جرح أو اغتيل ، وإن جورنج قد قتل . فإذا بلغت مثل هذه الاشاعة مسامع الألمان عمدوا إلى نشر صور هؤلاء النازيين في صحف باريس كرد عملي على تلك الاشاعة .

ومن الدعايات التي نجح الألمان في نشرها محاربة اليهودية ، واعتبار اليهود سبباً لنكبة فرنسا . حتى أن متاجر اليهود حطمت نوافذها في الشانزليزيه ، وإن كثيراً من مطاعم باريس

الكبرى تُحرم دخولها على اليهود ، كما اقترحت بعض الصحف ترحيل جميع اليهود إلى بعض الجزر كاستراليا ومدغشقر أو إنجلترا نفسها ! وأعلن جاك دوريو أن من الواجب القومى إرسال جميع يهود فرنسا إلى افريقيا . وكان على اليهود أن يعلنوا عن جنسيتهم بلوحات تلصق على أبواب متاجرهم ، وإلا كانوا عرضة للعقاب الشديد ، وكانت متاجرهم عرضة للاستيلاء عليها. كما حرم على اليهود الذى هربوا من باريس العودة إليها ، وعلى الذين نزحوا إلى المنطقة الحرة العودة للمنطقة المحتلة .

وعندما نشبت معركة بريطانيا نشرت السلطات العسكرية إعلانات فى المطاعم والمراقص تحرم الرقص على جميع الألمان ، وكانت حجتهم فى ذلك ، أنه ليس من النخوة القومية أن يرقص هؤلاء الجنود فى باريس ، بينما يقع زملاءهم صرعى فى ميدان الشرف .

ولا ريب فى أن أهل باريس قد تعلموا كثيراً من حرب الدعاية هذه ، فلم تعد فتات الأخبار وسخيف الاشاعات لتحرك شهيتهم القديمة .

باريس الجنوب

«هكذا كان وجه الريفييرا فى أغسطس عام ١٩٤٠»

لم يكن إعلان فرنسا الحرب وحده ليمنع مئات من رواد «الريفييرا» من البقاء فيها ، مادامت باريس نفسها، وهى على غير بعيد من جبهة القتال، تعيش حياتها الأولى، فما بال نيس و«كان» ومونت كارلو ومنتون؟ يضيوفها من أصحاب الملايين: من كل جنس وملة بفلاتهم الأنيقة المطلة على الكوت دى زور ، ويخوتهم الجاثمة كبعض الأوز والبجع على مياهه الزرقاء الداكنة، الراكدة من غير أسن؟

ثم جاء شهر يونيه الفاجع ، ثم كانت الهدنة ، ثم انتصف الصيف .

ولكن «كان» لم تقفل أبواب فنادقها . فالكارلتون و«الميرامار» مافتئتا غاصتين بالمئين من الزوار ؛ ولكنها وجوه

جديدة لم تألفها شرفات هذين الفندقين . إنهم جماعات المهاجرين من فرنسيين وأجانب، ساقهم الفزع إلى أقصى الجنوب ؛ جاءوا إلى الريفييرا خاوين الوفاض، يعيشون على ما كانت البلدية تقدم اليهم من طعام، وما كان يقدم اليهم من مساعدة أصحاب الملايين من الأجانب النازلين .

ولم يعدمن آثار تلك العهود الحافلة بألوان المرح والبهجة، وبألوان الجمال والفتنة ، لم يبق منها إلا سماء الصيف الرائعة ومياه البحر المترقرقة التى تمتد إلى جزائر ليران ، وتحتضنها من بعيد جبال الاستيريل .

فدار الكازينو العظيمة التى أصبحت مستشفى عسكريا منذ اعلان الحرب ، أضحت اليوم ملجأ يضم المئين من المهاجرين . واختفت تلك الأعلام الملونة التى كانت ترفرف على «اليخوت» الجاثمة فى الميناء ، والتى انطلقت هاربة مع أصحابها من أمريكيين وانجليز منذ سقوط باريس .

ولم تعد تسبح فى ذلك الميناء إلا بجعة واحدة ، يعرفها كل من كان يعرف «كان» من قبل ، يعرفها بأناقتها وزهوها وجمالها ،

تلك «نعمة الله» يخت الخديو عباس حلمى الثانى ؛ التى صادتها الحرب العظمى الثانية فى مياه الريفييرا ، كما اقتنصتها الحرب الأولى وهى جاثمة على مياه البسفور ! ولم تعد «نعمة الله» تطيق التبرج فى هذه الوحدة ، فخلعت عنها زينتها ونفضت منها مئات من الأعلام الصغيرة الملونة التى كانت ترفرف على صواريها ، واختفى دهانها الأسود ذو النقط القرمزية الذى كان يجعلها تبدو كبعض كلاب البحر ؛ بل واختفت من فوق ظهرها فرقة البحارة بأزيائهم الأنيقة ، ولم يتخلف منهم إلا بعض الحراس بملابسهم البيضاء .

وكان من بين هؤلاء الضيوف ألفان من الانجليز ، أُرتج طريق العودة فى وجوههم ، فجاءت حكومتهم إلى نجدتهم ؛ بأن طلبت إلى السلطات الأمريكيـــة أن تمنح الواحد منهم عشر جنيهات فى كل شهر حتى يتيسر ترحيلهم . وبقى إلى جانبهم الدكتور «جنر» الطبيب الانجليزى الذى يعيش فى «كان» منذ زمن طويل ، والذى أصبح يعالج مرضاه نسيئة لأنه يعرف كل انجليزى يرتاد الريفييرا .

ومن الخطأ أن نتصور « البلاج » خلوا من السابحين ، فهؤلاء الضيوف الجدد من أطفال وعجائز لم يتركوا ركناً خالياً على رمال الشاطىء المنبسطة إلا استولوا عليه ؛ بيد أن العابهم وصيحاتهم ينقصها ذلك المرح وتلك الرغبة الجامحة فى اقتناص لذائذ الحياة التى كانت تفيض بها نفوس رواد الرفييرا . بل عملت السلطات من جانبها على أن تكبح كل نزوة طائشة فاصدرت أمراً تمنع فيه السابحات من ارتداء أزياء البحر ذات الشقين ، خوفاً على العيون من البطون . !

وحل موعد الكرنيفال ، وحل موعد معركة الأزهار ، التى كان يشترك فيها مئات من أجمل فتيات الجنوب فى ثياب الحرير الأبيض حول «الكرواست» ؛ وحل موعد مسابقات الجولف والبولو ، ولكن لم يكن أحد يذكر تواريخ تلك الأعياد إلا بعض العجائز من الاستقراط من أمثال المركيز «ميرونيه دى مارك» الذى وهو فى سن الثانية والسبعين ، ما كان ليغيب عن ارتياد محافل الشباب هذه وقاعات الكازينو ومواكب الكرنفال . أما اليوم فقد استبدل سيارته الفاخرة بعجلة يطوى بها كل يوم

الطريق من منزله الصيفى فى موجان إلى كان، بعد أن عز البنزين.

* * *

ولم تكن « نيس » مهجورة ، وإن كان وجهها الذى ألفناه قد تغير . فالأندية الليلية « والكاباريهات » ما زالت مفتوحة ، وما زالت تقدم لزبائنها الوان الشراب ، وإن كانت أبوابها تقفل فى الساعة الحادية عشرة .

ولم يكن فى فنادقها مكان لقادم جديد ، ونصف هؤلاء من السائحين الألمان الذين وفدوا اليها مع عائلاتهم بعد الهدنة . وهم ينفقون بسخاء وكرم بحساب خمسة وعشرين فرنكا للمارك الواحد . وأعجب ظاهرة فى شوارع نيس بعد أن اختفت السيارات بأنواعها من الرولز الفاخر إلى الفورد المتواضع ، جحالف العجلات التى لا تكاد تنقطع والتى جعلت عبور الطرقات لا يقل خطورة عما كانت عليه نيس إبان عهد السيارات .

* * *

ولم تقفل « مونت كارلو » أبواب ذلك الكازينو العتيد ،

ولم تمتنع المقامرة فى قاعاته وإن كانت ملايين الفرنكات قد تقلصت إلى آلاف . وبدأ الاهمال فى تلك الحدائق الرائعة التى كانت تقود الزائر إلى درجات الكازينو الوسطى . وما زالت « كافيه دى بارى » مفتوحة الأبواب إلا أن شرفاتها فقدت ذلك الزحام الذى عرفت به، وانبعثت من أكثر حلقاتها اللغتان الألمانية والايطالية ، وليس ذلك عجيباً ، فمن طريق « منتون » التى لا تبعد إلا بضعة أميال من « مونت كارلو » عبرت الجنود الايطالية حدود فرنسا الجريحة !

باريس النازية

« أصبحت باريس فى ظـل الصليب المعكوف
مدينة جديدة قد يجهلها أعرف الناس بها »

كان إذا عاد أحد المهاجرين إلى باريس يتلقاه أهلها بالسؤال ؛ فإذا وثقوا من أنه ليس صنيعة من صنائع الجستابو ، راحوا بدورهم يروون له ما كان يجرى فى باريس إبان غيبته .

وكان الضباط الألمان يترددون على المنازل التى هجرها أصحابها إلى الأرياف للاستيلاء عليها واحتلالها . وكان أصحاب هذه المنازل أو حراسها لا يتورعون عن تقديم البيانات الكاذبة أو إخفاء أدوات النوم ، وكان بعضهم لا يهجر هذه المنازل جماعة فى أيام الأعياد أو الآحاد ، حتى لا يضع الألمان أيديهم عليها . وكانت حجة الألمان فى ذلك أنهم أولى من أولئك الباريسيين الجبناء الذين هجروا مدينتهم فى ساعة الشدة .

إن وجه باريس قد تغير كثيراً ، فقد خلت شوارعها من السيارات

ومن عربات الأجرة ، لهذا كان على الباريسى أن يقطع الأميال الطويلة سيراً على قدميه . واشتد الاقبال على اقتناء الدراجات ، التى ارتفعت أثمانها أضعافا كثيرة ثم اختفت من الأسواق .

وكأن الألمانَ أرادوا أن يثبتوا لأهل باريس أنهم شعب جلاد وصراع ، لا يقعده انتصار عن العمل الدائم والنشاط المستمر ؛ فكانت سياراتهم الحربية الثقيلة تطوى شوارع باريس بسرعة البرق ؛ وكاد ضجيج دباباتهم ، ودوى طائراتهم التى تسبح على ارتفاع قليل يمسح من الخيال تلك الصورة القديمة لباريس ؛ ولا شك فى أن الألمان قد نجحوا بالفعل فى محاولتهم هذه التى ارادوها.

وكان الباريسى الذى يتوق إلى مجالس الشانزليزيه ، يقضى سهرته فى وسط جموع من الضباط الألمان . وكان إذا قدم زائر جديد منهم ارتفعت الأذرع بالتحية النازية ، ودقوا أحذيتهم ذات الأعقاب الحديدية فدوت فى المكان كأنها طلقات نارية . وكانت صدور أكثرهم لا تخلو من الأوسمة الحربية ، وكانت جروح بعضهم لم تندمل بعدُ فوق خدودهم .

* * *

وعند دخول الألمان باريس تخيروا من أحيائها حي باسى، ونيلى، والأتوال، وغابة بولونيا، فاحتلوا فنادقها الكبرى والصغرى وبيوتها الخالية ، وكانوا يعنون بتنسيق أثاثها على الوضع الذى يروقهم ، فينقلون قطع الأثاث من طابق إلى طابق، كأنهم ينسقون أثاث غرفة من غرفات النوم .

وقيل إن كثيراً من محتويات هذه الدور أرسل إلى ألمانيا ، ولكن ليس هنالك ما يؤيد هذه الاشاعة . ويمكن القول إجمالا بأن الألمان لم يستولوا على شىء بطريق التملك أو الشراء، إلا إذا كان ذا قيمة ذاتية ، فهواة الكتب لم تلمس أصابعهم رفوف القصص أو أخونة كتب الأدب الرخيصة ، بل إنهم لا يعنون إلا بالكتب العلمية أو بالطبعات النادرة لبعض الكتب .

وسرعان مافتحت مخازن باريس الكبرى أبوابها ، بعد أن دفع أولئك الذين أغلقوها عند دخول الألمان، غرامة مالية جزاء وقاحتهم هذه . وقيل إنه فى ظلام الليل كانت ترحل من باريس قطارات محملة ببدائع الفن والأثاث الذى عمل الالمان على جمعه ، كما كانوا يوسقون القطارات بالأطعمة والخضر، ولكنه لم يسمع فى

باريس أن يدأ امتدت إلى متاحفها الكبرى ، لأن هذا العمل كما يقولون دعاية سيئة لرجال الاحتلال الألمانى هم فى غنى عنها ، بل إنه على النقيض من ذلك عملوا على إعادة افتتاح متاحف باريس جميعها ، وأكثر من هذا أنهم أقاموا حفلا رائعاً عند افتتاح متحف اللوفر .

وكانت الكماليات التى عرفت عن باريس؛ من عطور وجوارب حريرية،وحلى ومجوهرات،وفراء،أشدما استهوى هؤلاء الضيوف، الذين كانت جيوبهم منفوخة بأوراق النقد الجديد ، والذين نسوا حياة الترف منذ سنين . وكان الألمانى يدفع الثمن الذى يطلب منه بدون مجادلة أو مساومة ، فقربت هذه المعاملة الطيبة الهوة بين أصحاب الأعمال فى باريس وبين هؤلاء الغزاة . وتبدل وجه هذه المخازن بعض الشيء ، بعد أن ازدحمت بطوائف الضباط ذوى الأحذية الثقيلة والمشية العسكرية ، والذين تراهم يجوسون فى أكثر الأحيان خلال الأقسام الخاصة بالتحف والهدايا النسوية ؛ وكثيراً ماترى الواحد منهم يخرج صورة زوجته أو صديقته الألمانية ليعطى العاملة فكرة عن قامتها ، بل

إنه كثيراً ما يستشيرها حتى يكون اختياره اكثر توفيقا .

وفى الظهيرة ، تسير كل يوم بعض الفرق الألمانية تشق الشانزليزيه ، تتقدمها أعلامها وموسيقاها وهى تترنح بخطوة الاوزة المعروفة . وكان مرأى هذا الموكب اليومى يثير سخط الفرنسيين فى أيام الاحتلال الأولى ؛ فكان من الفرنسيين مَن يوليهم ظهره، وكان منهم من يدلف إلى احدى الطرق الجانبية ؛ فالشانزليزيه كالطريق السلطانى عند أهل باريس ، يرتبط إسمه بذكريات الانتصارات المجيدة . بيد أن العادة بتكرارها قتلت فى النفوس روح الاشمئزاز أو السخط ، لان هذه المواكب لم تكن تعدم بعد ذلك بعض المتطلعين، من السائرين أو الجالسين على مقاهى ذلك الشارع .

وكان يبدو أن الفرنسيين الذين نزحوا إلى فيشى قد وطدوا العزم على قبول نتائج الهزيمة، مادامت مصالحهم الشخصية أصبحت فى مأمن من الخطر ، بيد أنك فى باريس تصطدم بالضد وبالنقيض؛ من المستسلم القانع، إلى الثائر الغاصب ، إلى المتيقظ لماسوف يأتى به الغد. لهذا كانت التهمة بالخيانة يتبادلها الواحد فى وجه

الآخر، حتى تكاد تحس بأن فرنسا جميعها أصبحت عصابة من الخونة.

ولم يترك الألمان واجباً يقرب شقة العداء بينهم وبين أهل باريس إلا فعلوه، ولم تكن تمر مناسبة دون أن يحتفلوا بتكريم الجندى المجهول تحت قوس النصر، فكانوا يضعون باقات الأزهار فى احترام وخشوع. وفى قطارات المترو المزدحمة كثيرا ماترى الجندى الألمانى يترك مقعده لسيدة فرنسية بعد أن ينحنى اليها بأسلوبه التقليدى فى التحية.

وما من أثر تاريخى أو تمثال عظيم فى باريس إلا وتلقى حوله جماعة من هؤلاء الألمان، يقرأون ما نقش على قاعدته، أو يراجعون مذكراتهم عن صاحبه، أو يلتقطون صورة له. أما قبر نابليون تحت قبة الأنفاليد، فأصبح محط رحال هؤلاء الغزاة الذين تراهم وقد تجمعوا حول سوره، ينظرون بعيون ساهمة إلى رفات ذلك الجندى الذى غزا اوربا بأسرها، والذى لم يهزم إلا فى موقعة واحدة؛ ثم يذكرون نابليون فى القصر الملكى فى برلين، أو فى حدائق سان سوسى فى بوتسدام، كما يذكرون فى الوقت نفسه قاعة فرساى الكبرى عندما نُصب وليم الأول امبراطورا على جميع الألمان!



الصليب المعكوف يرفرف فوق قوس النصر

واختفت تلك المناظر البهيجة عند أبواب فنادق باريس الكبرى، فلم تعد هناك جموع السائحين بحقائبهم التى لصقت عليها قصاصات باسماء مصايف العالم ومشاتيه، ولم تعد ترى السيدات الأنيقات بمعاطف الفرو الثمينة وأحدث نماذج القبعات، وهن يسحبن كلابهن العزيزة فى انتظار سياراتهن ؛ إذ لم يبق حول هذه الفنادق الا جموع الضباط.

وفى أيام الاحتلال الأولى، كنت تشاهد حول أكشاك بائعى الصحف بعض المناظر الفاجعة حين كانت تنشر قوائم الأسرى والجرحى. فمليونان من الأسرى ليس بالعدد الهين، لذلك يندر أن تجد بيتا من البيوت لم يتأثر بنشر هذه القوائم. أما عن حياة هؤلاء الأسارى فسوق الاشاعات رائجة وسوق الدعاية واسعة. ولكن الفرنسيين ما زالوا يذكرون أن أسرى الألمان لم يفك عقالهم إلا فى عام ١٩٢١ أى بعد ثلاث سنين من تاريخ إمضاء تلك الهدنة الأولى! وإن هذه الحقيقة المريرة لتثير فى نفوسهم القلق على مستقبل أسراهم اليوم، وقد جاء دور الحساب.

وكان جماعة الصليب الأحمر الصلة بين الآباء وبين اولئك الأبناء من الأسرى ، وكانت مركباتهم تطوف بين أنحاء فرنسا المحتلة دون قيد ولا شرط ، وهى تحمل الهدايا وتحمل الأطعمة والاطباء ، وتخترق الحدود بين فرنسا الألمانية وفرنسا الحرة ، دون أن تتوقف ليراجع الحراس الجوازات التى تبين صفة أصحابها . بل إن أصحابها أعفوا من قانون عدم التجول فى باريس ، فكانوا يذرعون شوارع باريس فى أية ساعة من الليل ؛ ولكن السلطات الألمانية ما عتمت أن شددت الرقابة على هذه الهيئات عند ما تبين لها أنها تعدت حدودها ، وأصبحت وسيلة لبث الدعوة السياسية.

وقانون التجول يحرم السير بعد الساعة الحادية عشرة من المساء . وإذا ألقى القبض على سائر بعد هذه الساعة ، أقتيد إلى أقرب مخفر للشرطة حيث يعاقب بمسح أحذية الجنود أو بتقشير «البطاطس» حتى ساعة الفجر !

ولم يكن الألمان يقومون بهذه المهمة وغيرها من واجبات حفظ الامن ، بل ترك أمر تنفيذها إلى رجال الشرطة من الفرنسيين.

وكانت الأساليب الالمانية بما عرف عنها من دقة ونظام ، لها أثرها فى رجال الشرطة انفسهم ، فبدوا أكثر أناقة وأعرف بواجبهم من ذى قبل . وكان رجال المرور يلبسون القفازات البيضاء الطويلة تشبها بأندادهم فى ألمانيا . وهكذا صبغ الألمان حياة العاصمة الفرنسية بصبغتهم النازية .

أسير يسير

«فى الربيع الثانى للحرب، أخذت الغواصات الألمانية تلعب دورا خطيرا فى الاطلنطيق ، وكان بحارة سفن الحلفاء المغرقة ترسل إلى الموانى الفرنسية المحتلة كأسرى حرب، وها هى ذى قصة بحار انجليزى استطاع الهرب سيرا على الأقدام من باريس إلى مرسيليا »

. . . وفى اليوم التالى لرحلة القطار من معسكرات الاعتقال فى بوردو ، وصلنا ضواحى باريس . وهكذا أصبحت الحدود الألمانية على قاب قوسين منا . فاستولى على يأس قاتل وقلت لنفسى : إذا لم أفكر سريعا وأعمل حثيثا، فان الأمل فى الخلاص يضحى مستحيلا. فلو قدر لى أن اعبر هذه الحدود ، فسوف أقضى أيام الحرب، طالت أو قصرت، فى معسكرات همبورج أو غيرها !

حتى إذا كان الليل، أجمعت أمرى على الهرب ، وكان القطار المظلم إلا حيث يقف الحراس ببنادقهم، ينساب فى ظلام دامس

فجمعت بعض الحوائج واللفائف ودسستها تحت غطائى. كما دسست فى طرفه حذاءً وقعت يدى عليه حتى لا يبدو مكانى خاليا. ودلفت على حذر اتخير طريقى بين صفوف النائمين فى سرداب العربة، وحدث أن دست على وجه أحد الأسرى فهب فزعا صائحا، ولولا أن الحارس كان يجهل اللغة الانجليزية وظن أن ما سمع حديثا بيننا، لانتهت قصتى عند هذا الحد.

ثم انتقلت إلى العربة الثانية، حيث كان ينتظرنى رفيقى م. وفتحت نافذة وأطللت منها لاتأكد من أن حارس العربة الخارجى لا ينظر إلى ناحيتنا، ولم أفكر ولم انتظر طويلا، بل قبضت على حافة النافذة ثم تقاعست؛ ثم حملت جسمى على ذراعى وما هى إلا ثانية حتى اندفعت فى الظلام إلى حيث لا أدرى. وأحسست بوقوعى فوق كومة من الحصى، وكانت العربات تنطلق فوق رأسى وتدوى دويا هائلا، وبعد لحظة سمعت صوت سقوط على الأرض وعلى غير بعيد منى، وكان ذلك رفيقى م. وانتظرنا قليلا حتى ابتعدت آخر مركبة للقطار فوثقنا من أن الحارس الخلفى لم يتنبه إلى فرارنا.

وكانت النجوم دليلنا، فعبرنا أرضا معدة للحرث إلى الطريق العام؛ وعند ما انتصف الليل لمحنا نوراً يتقدم نحونا، ولما كانت جميع السيارات قد استولت عليها السلطات الألمانية ، لم يكن لنا إلا أن نستلقى فى حفرة مجاورة حتى تمر السيارة بانوارها الكاشفة . ثم واصلنا طريقنا بين الحقول والمزارع والبرك ، ومررنا بقرى صغيرة نائمة ؛ حتى إذا بدأ الصباح يتفتح لجأنا إلى مخزن للتبن ودفنا أنفسنا فيه طلبا للاختفاء والدفء .

ثم إننا اكتشفنا فى ضوء النهار ديراً لبعض الراهبات الكاثوليك لجأنا اليه ، فاكرمت الراهبات وفادتنا ومنحننا أيقونتين للبركة ، ووعدننا بالصلاة والدعاء زيادة منهن فى كرم الضيافة !

فخرجنا إلى الطريق مزودين بالصلاة والصلات الطيبات ، فشاهدنا أكداس السيارات من كل نوع وكل حجم ، بعد أن سلبها أصحابها الاطارات والأثاث ، وخلفوها على جوانب الطرق ينيلها الصدأ . وكان زحام قوافل السيارات الألمانية يدل على أننا فى جوار بعض المنشئات العسكرية ، فانحرفنا إلى الحقول

بعيداً عن الطرق العامة وواصلنا رحلتنا حتى أمسى ذلك اليوم.
وعندما جاذفنا وطرقنا بيت فلاح منعزل ورأى صاحبه وجهينا
ادار لنا ظهره، بيدأن زوجته رقت لحالنا فقدمت لنا بعض الطعام
من بيض ونبيذ وخبز. وهكذا توالت ثلاثة أيام، ونحن نسير فى
منأى عن كل إنسان بسرعة قد تبلغ خمسة وعشرين ميلا فى
اليوم، فى إتجاه المنطقة غير المحتلة.

وحدث مرة أن عبرنا قنطرة، وكنا قد سمعنا بان القناطر
غير محروسة، وما كدنا نتوسطها حتى رأينا جنديا ألمانيا
يستوقف السائرين أمامنا ويستعرض أوراق شخصياتهم، ولما
كنا نجهل الألمانية ولا نعرف الفرنسية إلا لماما، ولما لم تكن
هنالك فرصة للافلات، كان عليّ أن أفكر سريعا. فأخرجت
زجاجة النبيذ التى أحملها وتعمدت سقوطها إلى جنب الحارس،
فوثب فزعا من فوره خوفا من أن تتلوث سترته الأنيقة، وأخذ
يكيل لى كلمات التأنيب وأنا أردد كلمة الاعتذار الفرنسية التى
أعرفها، بينا راح رفيقى يجمع قطع الزجاج المبعثرة؛ وهكذا
تمكنا فى هذا المرج من أن نسرع الخطى إلى الضفة الثانية.

وقضينا الليلة الرابعة في جناح خرب لمنزل ريفي منعزل ، وكانت عادتنا أن نطرق أمثال هذه البيوت المنعزلة لأن غشيانها أقل خطراً من غيرها . وعندما تقدمنا إلى عتبة الباب ألفينا دراجة مسنودة إلى الحائط ، فما أسرع ان راقت لنا فكرة سرقة هذه الدراجة، وكأنما هذا العزم كان مبيتا لأنه لم تنقض بضع دقيقة حتى اعتليت الدراجة، وحتى وثب رفيقي على حاجزها الأوسط ورحنا نجذف باقدامنا في طريق لولبي كالسكارى ، إذ قد مضت سنون منذ أن أعتلى أحدنا ظهر دراجة !

وكانت الطرق خالية إلا من بعض الدراجات وعربات النقل النازية ، وكنا إذا مررنا بجندي ألماني في مفترق طريق أشار له رفيقي إلى السكة التي نقصدها دون أن نتكلم .

ومن العجيب اننا كنا نسير دون أن نشعر إلى الجانب الأيسر من الطريق ، وقد غلبت علينا عادة النظام الأنجليزي الذي ألفناه من قبل ، ولم نتنبه إلى هذا الخطأ الخطير إلا بعد أن وجدنا أنفسنا في وجه قافلة من السيارات الألمانية ، مما دعانا إلى الارتجال وإلى سحب الدراجة بيننا. وعندما بدأ الثلج يتساقط أصبح السير مستحيلا

حتى اننا طرقنا بابا لنستجدى كيسا من الخيش اقتسمناه فيما بيننا ، فكان نعم الوقاء من برد تلك الليلة .

وفى صباح اليوم التالى، ولم يبق لنا من الطريق إلى الحدود فالحرية إلا سبعة أميال، تنكب لنا الحظ . إذ عندما طرقنا باب أحد هذه البيوت المتفرقة ، ما أشد دهشتنا عندما استقبلنا رأس شرطى فرنسى بدلا من وجه صبوح لفلاحة تحنو علينا بخبزها ونبيذها . وما أسرع أن عرف خبيئة أمرنا ولم يتردد فى أن يقودنا إلى مخفر الشرطة ، بينما قر الأمر فيما بيننا على أن نفصل عرى هذه الشركة وأن يستقل كل منا بالحظ الذى قسم له ، فاقتسمنا ما معنا من نقود .

وما كدنا نبتعد بضع خطوات حتى بيتت العزم على الهرب منفرداً مهما كلفنى الأمر، فلما جاوزنا غابة هناك أومأت إلى رفيقى وانطلقت لا ألوى على شىء ولا أنظر خلفى ، بل اندفعت إلى أشد اجزاء الغابة التفافا ، ثم خففت من عدوى بعد أن وثقت بان الشرطى قنع برفيقى دون أن يتبعنى ، مكتفياً بعصفور فى اليد عن عصفورين فى الغابة !

(٢)

وهكذا بدأت قصة فرارى وحيداً ، فأخذت أخوّض خلال هذه الغابة الملتفة باغصانها الشائكة ، فاحبو تارة وأفسح الطريق بذراعى أخرى حتى لم يسلم جزء من جسمى من وكزة أو جرح ولم تسلم ملابسى من التمزيق والقطع ؛ ولم يتفتح فجر الغد حتى كدت اتهالك تعبا وألما ، ولكن الأمل فى النجاة والحرية لم يدع للخور مجالا إلى نفسى ، فلم استرح إلا قليلا حتى انتصبت على قدمى بعد أن مسحت وجهى ودلكت ذراعى وقدمى التماساً للدفء .

وكانت السكة إلى حدود المنطقة الحرة تخترق مدينة صغيرة تنتهى إلى قنطرة . وكان علىّ أن أشق هذه المدينة فى وضح النهار وفى وسط عشرات من الجنود الألمان ، وفى هذه الثياب المهلهلة التى تستثير الشكوك والريب .

ولكن الرغبة الملحة فى النجاة تشحذ الخاطر وتجلو الذهن ، فعمدت إلى قرمة من الخشب قطعت حديثا وحملتها على كتفى ، وسرت متثاقلا بخطى مطمئنة جريئة أشق طريق المدينة الأوسط ،

وأتخطر أمام المقاهى التى اكتظت بالجنود النازية: إذ من ذا الذى يرانى ولا يظن أننى حطاب فرنسى مسكين فى طريقه من الغابة ، وهو يرزح تحت هذا الحمل الذى ينوء به كتفه ؟ !

ثم اننى دلفت إلى بعض الطرق الجانبية وسرت مغربا حتى بدت القنطرة التى تفصل فرنسا المحتلة عن فرنسا الحرة ، ولكن كيف السبيل إلى عبور هذه القنطرة التى يحرسها رجال الجستابو من جانب والحرس الفرنسى من جانب آخر ! وكأن العقل قد رفض التفكير، فانحرفت إلى بعض المزارع لأستريح ولأعمل الفكر من جديد .

* * *

لم تكن هنالك من وسيلة الا أن أعبر هذه القناة سباحة وأن أعبر أخرى تجاورها، ومن يدرى فلربما كانت هنالك قناة ثالثة.. ولم أدع للتفكير أو التردد مجالا فى نفسى وأنا ملاح لى خبرة وتجربة ، بل وثبت من فورى إلى الماء وغصت تحته واندفعت إلى الضفة الأخرى، وما إن لمست الهواء حتى كاد الماء الذى يتصبب منى يتجمد فوق جسمى ، فهرولت كالمأخوذ إلى القناة المجاورة ولم أفكر فى الماء

أو البرد بل فى الحرية التى تنتظرنى على الضفة الأخرى . وعندما خرجت من الماء أحسست بالآلام تجتاحنى حتى عجزت عن الوقوف منتصبا وقد كاد الماء يتجمد على كتفى ، بينما هدنى الجوع وتملكنى الاعياء ؛ ولما لم يكن هنالك أمل فى طعام أو دفء أخذت أفرك جسمى مرة وأثب فى مكانى أخرى لكى يستعيد الدم دورته .

ثم إننى اختبأت فى مزرعة مجاورة حتى أمسى المساء فانحدرت إلى ضفة القناة . ولم أكد اقترب من الماء حتى سمعت أصواتا تقترب وإذا بالقادم فرنسى يمتطى عجلة فهش إلىّ وقد عرف، وهو من سكان الحدود، ما كنت أقطع العزم عليه ، وطلب منى أن أصحبه لنعبر القنطرة المجاورة سويا ، ففعلنا وأنا لا أكاد أصدق نفسى، حتى إذا وصلت إلى الضفة الأخرى لم أتمالك نفسى من التصفيق والوثب فرحا بالحرية والنجاة ، ولكن صديقى الفرنسى لم يشاركنى هذه الفرحة لأننى فى الحقيقة كنت لا أزال فى المنطقة المحتلة، وأن النهر الذى يفصل بينى وبين الحرية مازال أمامى.

وكأنما قد أحس ذلك الفرنسى بغمة اليأس وهى تجتاحنى ،

فأراد أن يهون عليّ بان دعاني إلى مقهى قريب ، وقبل أن اتبعه سبقني هو ليخبر صاحبه بأمري، وليتأكد من ان المكان خالٍ من وجوه غير صديقة . ثم إن الشراب والدفء فعلا فعلهما فما أن استرحت ساعة حتى احسست بالقوة للوثوب على هذا السد الأخير الذى يفصلني عن الوطن .

ثم قادني الرجل من الباب الخلفي للمقهى إلى طريق يوصل إلى النهر ، حيث كان جندي ألماني يقطع مسافة مائة متر جيئة ورواحا ؛ فانتظرت حتى اولاني ظهره وذلفت متلصصا إلى الشاطىء واختفيت في الحشائش، وقد عمني حينذاك الفزع حتى كدت أفقد القدرة عن التنفس ، وما أن ولاني الحارس ظهره من جديد حتى ألقيت بنفسي في الماء المثلج بملابسي كاملة ، فكادت شدة البرد توقف حركة القلب .

ولولا انني كنت فزعا مكروبا منهوك الجسم لسبحت هذا النهر دون جهد ملحوظ ، ولكن هذه الستين من الأمتار بدت أمامي كأنها ميل كامل ،وكنت كلما رفعت رأسي فوق سطح الماء التمس الهواء كنت أتخيل بندقية ذلك الحارس وهي مصوبة اليّ ،وأن قرقعة

الرصاص سوف تدوى فوق رأسى، فأغوص فى الماء خوفا وفزعا.

وكان النهر يبدو أبديا، بيد أن رجلىّ كانتا تتحركان فى الماء بحركة آلية غير مقصودة ؛ وكدت أفقد الأمل فى النجاة أكثر من مرة واحدة ، غير اننى تركت نفسى لتيار الماء يحملنى إلى حيث شاء .

وها قد تمت الاعجوبة ! عند ما وقعت يدى على طين ذلك الشاطىء البعيد ، فجددت لذةُ النصر الحياة فى نفسى فحملت جسمى على ذراعى المنهوكتين، وأخذت أرتقى ذلك الجرف الطينى اللزج بعد أن وثقت من أن الحارس كان منصرفا عنى ، وطفقت أزحف حتى دسست نفسى فى بعض حشائش الشاطىء .

ومع انى أحسست بهواء الحرية يملأ صدرى ، ومع أننى أحسست بأن الطريق الى الوطن قد أصبحت مفتوحة معبدة، الا أننى لم أحمل نفسى طويلا ، بل سرعان ما فقدت الحس والوعى .

صحف سرية

«ومازالت صحف باريس المعروفة تؤدى رسالتها،
وإلى جانبها ظهرت صحف سرية تؤدى مهمة المعارضة»

احتجبت صحف باريس فى اليوم الذى وطئت فيه جيوش الاحتلال أرض العاصمة ، وسار كثير من رجال الصحافة فى ركاب الحكومة المهاجرة ، وبقى من بقى من المناصرين لحركة التعاون الألمانى ، ولم يكن هؤلاء بالعدد القليل ، ومع ذلك فلم تصدر صحيفة من صحف باريس الكبرى إلا بعد أن استقر الألمان فى العاصمة بضعة أيام .

وكانت «الماتان» أولى هذه الصحف التى صدرت فى باريس فى عهدها الجديد ، لهذا اعتبرها بعض الناس لسان حال السلطات العسكرية الألمانية فى فرنسا المحتلة ، ويدللون على ذلك بقولهم إنها كثيراً ما كانت تذيع أخباراً لا تنشرها «الجريدة الرسمية للدولة الفرنسية» إلا فى الغد ، ويخرجون من التحليل إلى الاستنتاج فيؤكدون أن حكومة فيشى لا تبرم أمراً إلا بعد موافقة سلطات الاحتلال !

وتولى فردونيه تحرير «الماتان» ، ولم تمض بضع شهور حتى انتقل إلى عمل آخر ، وعاد اسطفان لوزان إلى رياسة تحرير الماتان من جديد . وهكذا أصبحت الماتان لساناً للدعوة الألمانية فى فرنسا ، وصحيفة شبه رسمية لسلطات الاحتلال .

وكانت صحيفة «الأوفر» قد انتقلت إدارتها بعد الاحتلال إلى المنطقة الحرة ، بيد أنها عادت بعد قليل إلى باريس .

«والأوفر» كانت وما زالت لسان حال الجمهوريين ، وأصبحت فى عهدها الجديد بعد أن تولى «مارسيل ديا» إدارة تحريرها ميداناً للنادين بمناهضة سياسة الحرب ، وبالدعوة لحماية العجائز والأطفال ، من أمثال جورج ريفوليه ولافوشارديه .

وللملكيين صحيفة جديدة فى باريس ، صدرت بعد بضعة شهور من احتلالها ، هذه هى جريدة «أوجوردوى» الذى يتولى أمرها «جورج سواريز» الصحفى المعروف بمقالاته النقدية فى صحيفة «الجرنجوار» الأدبية الأسبوعية المشهورة ، وصاحب تاريخ مفصل عن بريان .

وتوالى ظهور كثير من صحف باريس المعروفة ومجلاتها

الأسبوعية والشهرية ، ومن البديهى أن جميعها مناصر لحركة التعاون الألمانى الفرنسى؛ أو أنها على الأقل، لا تبدى نفورا من مناصرة هذه السياسة .

فصدرت من جديد «پارى سوار»، و«پارى ميدى»، و«الأوتو»، و«البيتى باريزيان»، ومجلة «الاستراسيون» المصورة. وأصدر كاميل بلانش «فرنسا الاشتراكية»، وجاك دوريو «صوت الشعب» كما صدرت جريدة باريس الألمانية «باريزر زيتونج» التى تحرر إحدى صحائفها بالفرنسية .

وانتقلت إلى فيشى صحف ومجلات ، إلا أن باريس استعاضت عن كثير منها بمثيلاتها ، ومن هذه مجلة «ماري كلير» الخاصة بالأزياء «والجرنجوار» الأدبية، ومجلة «ماتش» الرياضية.

***

ولا شك فى أن ظهور هذه الصحف الموالية للتعاون الألمانى عن يقين أو عن رهبة أو عن منفعة مادية ، واختفاء صحف المعارضة التى كان يستمتع الباريسى بما فيها من مقالات ساخرة وتعليقات تهكمية عن الحكم وفضائح صحيحة أو مختلقة عن رجاله ،

لاشك أن هذا الوضع الذى درج عليـــه المزاج البـاريسى قد أوحى منذ اليوم الأول لبعض المشتغلين بالكتابة والتحرير - وكثير ماهم فى باريس - بملء الفراغ الذى خلفته المعـارضة باصدار نشرات أو صحف سرية .

ومن الخطأ أن تتخيل هذه المطبوعات صحافة حتى فى أبسط صورها . فهى لاتصـدر يومية أو أسبوعية ، وهى لاتطبع فى أكثر الأحيان ؛ إذ يكفى أن تثور أعصاب باريسى لمنظر رآه أو حادث سمعه أو مقال نشر فى إحـــدى الصحف الكبرى لم يصادف هوى فى نفسه ، تكفى هذه لأن يعمد الى ورقة يدبجها بيراعه ويتوجها باسم من الأسماء الرنانة «كصوت باريس» مثلا أو «الشعلة» أو «الثأر» أو «الحرب تستمر» ؛ ويعمد إلى تركها فى إحدى المقاهى عنوة ، لتتبادلها أيدى الجالسين .

لهذا كان اعتداء على الحقيقة إذ تسمى «السالامين» جريدة أو صحيفة سرية فهى ورقة من وجهين ، يحررها صاحبها بريشته ، ويزخرف عناوينها بالألوان ويصدرها فى نسخة واحدة ليس إلا ! وعلى هذا النسق كانت تصدر «الأوزة السجينة» التى لم يتورع

محررها من تقسيم نسختها الوحيدة : إلى صحائف للنقد، والسياسة، وصدى الأنباء، وأخبار الاقتصاد، والاعلانات الصغيرة، كل ذلك فى ورقة واحدة، حتى لا تبدو دون الماتان نفسها أهمية، وهو لا يحتاج فى عمله إلا أن يحبس نفسه يوما فى غرفته .

بل يكفى أن يتهيأ لباريسى ممن يشعرون باستعدادهم الصحفى، أن يتهيأ له الاستيلاء على آلة كاتبة ولو أثناء عمله اليومى، ليرد على مقال نشرته «الأوفر» أو منشور أذاعته سلطات الاحتلال، ويعمل إلى ترك هذا الرد على مقعده فى قطار المترو . .

ولو أن هذه المجهودات لا تعدو أن تكون عملا صبيانيا ليس له آثاره الخطيرة فى توجيه الرأى فى بلد كباريس، بيد أن الحقيقه ان هذه الوريقات كان يرحب بها أهل باريس لأن المزاج الباريسى الذى اعتاد ما يسمونه «حرية الرأى الطليقة» المجردة من كل ضابط أو قيد، يقبل على ما تنشره هذه المطبوعات السرية من نوادر طريفة أو ملاحظات نقدية بارعة . فقد علقت إحدى هذه الصحائف على سياسة بيتان التى دعاها سياسة «العمل، الأسرة، الوطن» بأن أضافت اليها :

العمل الاجبارى ،

بعيـدا عن الأسرة ،

وضد الوطن .

ولـكن إلى جانب هـذه المحاولات الفردية الضئيلة ، عمـل بعض المناهضين لسياسه التعاون الألمـانى لأسباب شخصيـة أو بسبب الاضطهاد الذى صبه النظام الجديد على رؤوس طائفة من الطوائف كاليهود أو هيئة من الهيئات السياسيه القـــديمة كالاشتراكيين، إلى إصدار بعض صحف مطبوعة أو منسوخة بالآلات الكاتبة، ولـكنها لم تكن تعدو ورقة أو ورقتين، يتراوح ما كان ينشر منها ما بين عشرات أو بضع مئات .

وأول ما نشر من الصحف السرية « الريزستانس » او المقاومة، التى صدرت فى اكتوبر سنة ١٩٤٠ ولـكن ما أسرع أن قبض على أصحابها . كما صدر فى هذا التاريخ صحيفة «البانتاجرل» وهى صحيفة شهرية كذلك ، لم يكتشف أمرها إلا فى أخريات عام ١٩٤١ . ويذكر الذاكر كذلك جريدة « الانسانية » القديمة ثم جريدة «الحرية» الـكاثوليكية التى كانت تطبع فى المنطقه الحرة

وكانت تتسرب إلى باريس ، بيد أن حكومة فيشى قبضت على أصحابها . ثم جريدة « ڤالمى » ثم « التحرير » التى سرعان ما اختفت كغيرها .

وقد أنشأ مدير البوليس فى باريس الاميرال «بارد» مكتباً خاصاً لمراقبة حركة الصحافة السرية ، لذلك لم تكد تظهر صحيفة أو نشرة من هذه النشرات حتى كانت تختفى سريعا مع ما كان يبذله أصحابها من براعة أو دقة فى التخفى ، حتى أن صحيفة مثل ڤالمى كان يشترك فى اعدادها ـ بالكتابة على الآلة الكاتبة أو بتهريب ما تحتاج اليه من ورق أو حبر ـ فتيات بارعات الجمال يعملن فى مكاتب السلطات الألمانية !

فهذه الصحافة السرية مهما كانت تافهة أو ضئيلة ، فانها تمثل فكرة وتحقق غاية ، وترضى نزعة صميمة من نزعات المزاج الباريسى .

ولكن العجيب من أمر هذه الصحف السرية ، أن عيون الاحتلال كانت مبصرة لما يجرى فى الظلام ، مدركة لمبلغ ما تتركه روايات هذه النشرات من أثر فى نفوس الباريسيين ، لهذا عمدت

هذه السلطات إلى حيلة بارعة ، بل إنها اتخذت من هذه الصحف وسيلة للدعاية ؛ فكانت إذا وقعت على نشرة أو كتيب من هذه المطبوعات ، أعادت طبعه بمالها ؛ بيد أنها كانت تضيف اليه بعض فقرات ببراعة المزيف الماهر ، لكى تثير الشكوك والريب فى اخلاص المناهضين لسياسة التعاون الألمانى .

فهى لا تهاجم ديجول صراحة فى منشور يوزع سراً للدعوة له ، بل إنها تعمل على إثارة الشك فى نفس القارىء بما تزيفه من سطور وكلمات لا يكاد يدركها كاتب الرسالة نفسها ، حتى يحس الباريسى بأن ديجول وأمثاله ليسوا إلا صنيعة من صنائع الانجليز يُنقدون على عملهم أجراً ، أو أنه يسعى إلى منفعة ذاتية وغاية شخصية ، وما أسرع أن يرميه الباريسى بالخيانة ، دون أن يشعر بأنه موحى اليه .

المنظر الاخير

« هل فقد أهل باريس الثقة فى المستقبل ؟ »

راحت الحياة تدب من جديد فى باريس ، مذ أخذت جموع الباريسيين تعود اليها ، تعود اليها وكأنهم جرذان فرقتهم قطة هائجة . وبعودتهم التى بلغت شدتها فى الخريف انتعشت باريس ونفضت عنها تراب المدينة المهجورة .

كان أهل باريس ينظرون إلى هؤلاء الألمان فى حيطة وحذر ، وإلى أساليبهم فى دهشة ، حتى إذا قتلت العادة وجه الغرابة ، تنبه هؤلاء الفرنسيون إلى أن هذه الأساليب بعيدة عن طبيعتهم ، وان هذه الدقة التى عرفت عن الألمان ، وهذه الطاعة العمياء التى سمعت عن البروسيين ، إن هذه جميعا أشياء نافرة عن المزاج الفرنسى . ولكن كان عليهم أن يتعلموا الطاعة والنظام ، بل هم أحسوا بأنهم فى حاجة إلى مثل هذه القيود ،

وإن الطاعة المطلقة لها قيمتها اذا كان الوطن فى خطر .

وقد تنشأ الباريسى على أن يتحايل على القانون إذا وجد إلى ذلك سبيلا ، وقد ساعده على ذلك رجال الأمن أنفسهم الذين كانوا يوجهونه بالكلمة أو الملاحظة، أو باللكمة والصفعة إذا احتاج الأمر ؛ حتى أصبح القانون فى نظره مساومة بينه وبين رجال الحفظ ، يعتدى عليه إذا أمن العيون أو إذا أوتى البراعة .

ولكن عندما سيطر الألمان على البوليس فى باريس تحت إشراف مسيو «لانجيرو» الذى استدعوه إلى وظيفته، عملوا على التلطف مع الباريسيين والابتعاد عن كل مظهر للخشونة أو الارهاب ، بيد ان الطبيعة البروسية كانت أشد غلبة من هذه السياسية المبيتة : فالأمر عندهم مقدس لا يداس ، والقانون شريعة لا تقبل التحايل . فاذا اخطأ الباريسى فى ملاحظة علامات المرور، انقض عليه الشرطى الألمانى وعاقبه فى الحال بالوقوف فى مكانه ساعة أو ساعتين .

وسرعان ما اختفى الاضراب من معامل باريس ، ذلك

المرض الذى مُنيت به الصناعة الفرنسية حتى اهزلها . إذ انه عندما حاول عمال مصانع رينو الاضراب لسبب من الأسباب بعد الإحتلال الألمانى ، حاصرت السلطات العسكرية المكان وألقت القبض على بعض المحرضين المعروفين وبعد محاكمة قصيرة اعدموا فى المكان نفسه رمياً بالرصاص ، وعلى هذا النحو اختنق مرض الاضراب من باريس .

ولم تك هذه السياسة مقصودة لتدريب الباريسيين على النظام الجديد ، بل إنها جزء من نظام الحكم الألمانى نفسه ؛ فقد حدث ان اعتدى جندى ألمانى على صاحب مقهى من مقاهى البولفار ، فألقت السلطات الألمانية القبض على الجندى ، وحوكم ، ثم اعدم علناً رميا بالرصاص بعد ثمان واربعين ساعة من اعتدائه على صاحب المقهى .

ومع أن المسيو مارشاند مدير البوليس فى باريس كان من أكفاء رجال الحفظ الذين عرفتهم العاصمة الفرنسية ، ومع انه من الموالين لسياسة التعاون الألمانى ، إلا أن ذلك لم يجده فتيلا عندما عجز عن أن يكتشف سر المظاهرة التى حدثت حول تمثال

جان دارك ، فأعفته سلطات الإحتلال من عمله فى الغد .

فهذه الصرامة وهذه العبودية للنظام والقانون جعلت أهل باريس فى فزع قاتل ، ولكنهم سرعان ما كيفوا أنفسهم لهذا النظام الجديد ، وان كانت طبيعتهم القديمة تعاودهم إذا غفلت عنهم عين الجندى الألمانى .

* * *

دهش أهل باريس عند ما شعروا بأن هؤلاء الألمان يعرفون كل خافية عن الحياة الفرنسية ، يعرفون ماضيهم القريب والبعيد ، يعرفون مشاكلهم الحاضرة وآمالهم فى المستقبل . لقد كانت باريس عندهم كتابا مفتوحا ، فلم يجد الفرنسى مجالا لإستغلال جهلهم ولا وسيلة إلى تضليلهم . والألمان يفتخرون بأنهم يعنون بالتافه من الأمور عنايتهم بالكبير الخطير ، فكلاهما يحتاج إلى الدرس والفحص ، وما التفاهة وما الخطر إلا درجات ليست إلا للشىء الواحد .

وإذا استثنينا هذه الدقة التى فرضت على أهل باريس فى رعاية القوانين والنظم التى سنها الألمان ، فان الجفاف الذى إرتسم على وجه باريس بعد الجلاء أخذ ينقشع شيئاً فشيئاً .

فالحياة الليلية بمراقصها ومسارحها ومساخرها استعادت نشاطها القديم . وإنك لترى على أبواب هذه الأندية فى مونبرناس ومونمارتر صفوف السيارات العسكرية التى تحمل الجنود إلى حيث قضاء السهرة ، فينفقون فى هذه الأندية بسخاء وكرم .

ويجد خدم هذه الأندية أن من الوطنية الصميمة إقتناص الفرصة : فيقدمون النبيذ فى زجاجات الشمبانيا التى لفت فى المناشف، حتى لا يعرف حقيقتها أحد هؤلاء الضيوف، ولكن من الحق أن نقرر أن كثيرا من هؤلاء الخدم من الايطاليين الذين فك عتاقهم بعد إعلان الهدنة.

وإذا دقت الساعة الحادية عشرة ، كان على الفرنسيين أن ينصرفوا من المراقص والمقاهى ، إذ تطلق صفارة تعلن بانه لم يبق إلا ربع ساعة للإنصراف ، كما تجوس سيارات الشرطة الشوارع وهى تحمل مكبرات الصوت مؤذنة بانتهاء السهرة . فلا يبقى فى هذه المراقص إلا فتيات الشارع اللاتى قد لا ينصرفن إلا فى منتصف الساعة السادسة من الصباح حين يسمح بالسير فى الطرقات . وفضلا عن هذا فقد خصصت منتديات لرجال

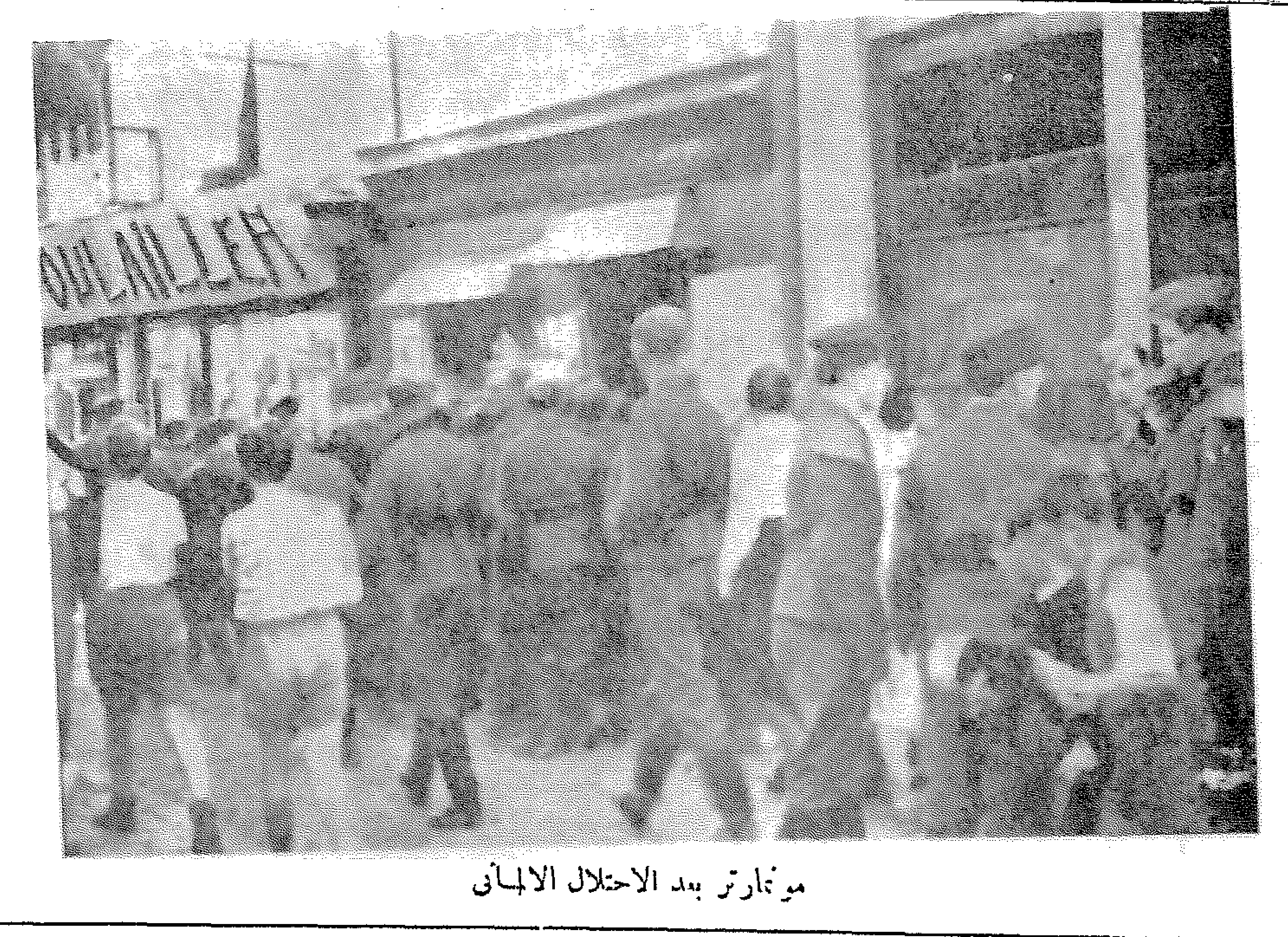
الجيش لا يسمح بدخولها إلا لهؤلاء الألمان .

وفتحت دار الأوبرا أبوابها ، كما استعاد مسرح « الفولى برجير » حياته القديمة ومساخره العارية ، التى كانت شيئا جديداً عند هؤلاء الشبان البروسيين ، الذين لم يعرفوا هذا اللون من الفنون إلا فى قراءة الكتب .

فروح المرح التى عرفت عن الباريسى ، لم تقتلها هذه الفاجعة . فهو لا يتورع مثلا عن أن يعلق بجملة يضيفها إلى منشور عسكرى إذا أمن الطريق ، أو بكلمة يرسلها عن منظر يستهويه ولو أدى ذلك إلى تعريض نفسه للقصاص ؛ فذكرت مثلا سيدة أمريكية كانت تعمل فى الصليب الأحمر أنها كانت ذات يوم تسير على عجلتها فى الشانزليزيه فحمل الهواء ثيابها ، وما أشد دهشتها عند ما ألفت جماعة من الباريسيين الجالسين على المقهى يقفون وينحنون قليلا ، ليزدادوا إمعانا فى النظر إلى ما كشفه الهواء من جسمها ويصيحون : « يالها من أفخاذ جميلة ! »

* * *

حتى إذا كان اليوم الأول من شهر اكتوبر ، فتحت



مونمارتر بعد الاحتلال الالمانى

مدارس باريس أبوابها ، بعد أن عاد اليها الأطفال الذين هجروا المدينة منذ ليلة إعلان الحرب مع معلماتهم وممرضاتهم إلى كثير من أنحاء فرنسا .

وكانت عربات المترو مكتظة بالصبية والفتيات الذين كانوا يحملون حقائب الجلد الجديدة فملأت رائحتها المكان ، وامتلأت هي بالدفاتر والكتب الجديدة وبالأقلام والمماسح ؛ فأكسب باريس مرآى هؤلاء الصغار فى شوارعها نوعا من الراحة النفسية والطمأنينة ، وأحس الناس بأن باريس قد استأنفت عاما جديداً وعهداً جديداً .

ولم يفرض الألمان أساليب خاصة، ولم يكسروا تقليدا من تقاليد الدراسة فى معاهد باريس ، ولكنهم كانوا يرقبون بحذر ويقظة ما يدور وراء جدران حجرات الدرس ، حتى لا تنفذ إلى عقول هؤلاء الصغار دعاية غير مرغوب فيها .

* * *

ومظاهر اللهو الفاضح التى عرفت عن باريس ، وروح البذخ والاسراف قُضى عليها تحت هذا «النظام الجديد» .

فبعد أن استقرت الحياة فى باريس ، عمد الألمان إلى تشجيع ونشر المنسوجات «الإصطناعية» أو مايعرف باسم «الإرساتز» حتى يتيسر لعامة الشعب الحصول عليها ، لسهولة انتاجها من الزجاج والورق والقش وما إلى ذلك . فخيرٌ أن يلبس الفقير شيئاً ولو كان أقل جودة من أن يستحيل عليه سترُ جسمه .

وما إن سنَّ الالمان هذه القوانين ، حتى أثار أصحاب دور الأزياء الكبرى فى باريس إحتجاجا ، زاعمين فيه أنه يستحيل عليهم أن يقوموا من ابتكار فى فن الازياء باستخدام هذه الأقمشة الرخيصة : وأن هذا النظام الذى فرضته السلطات الألمانية فيه قضاء عاجل على تجارتهم وشهرة متاجرهم التاريخية . وحتى الألمان رأسهم للعاصفة ، وسمحوا لهذه المؤسسات الباريسية بانتاج نسبة معينة من الأقمشة الثمينة حتى تؤدى هذه الدور رسالتها فى عالم الفن !

وتهامس الباريسيات إذ ذاك ، بأن المرشال جورنج هبط باريس قبل أن يصدر ذلك القانون ، وأنه راح فى صحبة مدير مطعم «مكسيم» الشهير يزور دور الأزياء المعروفة لينتقى أحدث مبتكراتها هدية لزوجته الجميلة ، وأنه ماكانت أشد دهشته حين أكتشف أن أكثر أصحاب هذه المخازن من اليهود . . . .

خونة وجواسيس

ما هو سر سقوط فرنسا ؟

ليس الخونة وليس الجواسيس ، وليس رجال الطابور الخامس بالدودة التى تنهش التفاحة فتتلفها ؛ اللهم إلا إذا كانت التفاحة نفسها فاسدة معطوبة !

.... هناك على مسيرة أربعين ميلا من شمال باريس ، تقع سنليس الصغيرة التى لا يزيد عدد أهلها على بضعة آلاف ؛ وفى يوم ٣ يونيه سنة ١٩٤٠ ألقت طائرة ألمانية مفردة بعض قنابلها على هذه المدينة، فسرعان ما حل الذعر بأهلها ، وسرعان ماجمع الموسرون منهم متاعهم وفروا من المدينة بسياراتهم صوب الجنوب ، فى طريق كانت غاصة يومئذ بقوافل الفلاحين المساكين .

ولكن من ذا الذى أمر هؤلاء السكان باخلاء مدينتهم ؟

الجواب على ذلك : لا أحد !

فلم تكن هنالك من ضرورة ملحة للهجرة ، ولم تفكر القيادة الفرنسية فى الخطر الذى يتمخض عنه وقف حركة المرور . لذلك عمد الألمان إلى إثارة هلع القرويين بالقاء القنابل هنا وهناك ليدفعوا بهم إلى الطرق العامة التى غصت بقوافلهم ، حتى أصبحت حركة نقل الجيوش مستحيلة . ومما زاد الطين بلة ، أن السلطات الفرنسية وقفت أمام هذه المشكلة مكتوفة اليدين لا تفعل شيئا .

وبعد ثلاثة أيام من ذلك ، أى فى اليوم السادس من شهر يونيه، وصلت إلى عمدة «سنليس» هذه رسالة تلفونية ، قيل إنها من مركز الإدارة فى « بوفيز » تأمره فيه باخلاء المدينة ، لأن الألمان قد عبروا نهر الواز ، وأن الجيوش الفرنسية المتقهقرة ستتراجع إلى «سنليس» للدفاع عن باريس .

وهكذا خرج البقية الباقية من أهل هذه المدينة على أعقاب السابقين منهم ، حتى وجد الجيش الفرنسى نفسه محصوراً بين قوافل المهاجرين ؛ وضربت الفوضى أطنابها ، حتى إن عربات الاسعاف لم تكن لتتقدم إلا على مهل فى وسط هذا المعمعان

من السيارات وعربات النقل وعربات اليد ، ومن الخيول ودواب الحمل .

أما الحقيقة ، فإن الإدارة فى بوفيز لم ترسل أمراً بإخلاء سنليس ! فمن ذا الذى بعث بهذه الرسالة المجهولة ؟ أهو موظف مهووس ؟ أم هو صنيعة من صنائع الألمان ؟ أو هو أحد جواسيسهم ؟ ولعل هذا الفرض الأخير أقربها جميعا للتصديق ؛ وليس غريبا أن يحدث ذلك وليست هنالك رقابة فعالة للاشراف على طرق المواصلات والمخاطبات .

* * *

روى طيار فرنسى مشهور أنه أرسل للبحث عن ثلاث فصائل فرنسية « ضائعة » ولكنه بعد أن بحث عنها قريبا وبعيداً معرضا نفسه لنيران المدفعية الفرنسية ، التى لم تكن تفرق بين الطائرات الفرنسية والألمانية ، عاد إلى قاعدته ؛ وما أشد عجبه حين وجد أن مركز القيادة نفسه قد اختفى إلى حيث لايدرى !

* * *

أما رجال الطابور الخامس فعلى أربعة أنواع . الجواسيس

المحترفون ، الجواسيس الهواة ، أعوان الثقافة الألمانية ، ثم طوائف الفرنسيين الذين يؤمنون بالحكم الدكتاتورى على أنه الوسيلة الوحيدة لأنقاذ فرنسا ، وللقضاء على روح الفوضى وجراثيم الضعف التى تنخر كيانها .

نعم ليست هنالك من دولة لا تستخدم طائفة من الجواسيس المحترفين ولكن الألمان ضربوا فى هذا السبيل بسهم أوفر ، وأكثر صنائعهم من شعوب البلقان أو من الروسيين واللتوانيين ، ثم من ذلك الخليط المجهول الأصل الذى يعيش فى فرنسا .

وقد تمكن الألمان من أن يبعثوا إلى فرنسا بعدد من جواسيسهم فى ركاب اللاجئين من اليهود ، الذين كانوا يفدون على باريس منذ أن تولى هتلر الحكم فى ألمانيا ، وأمكنهم بذلك أن يغتصبوا العطف ويحوزوا الثقة من أشد أعداء النازى .

وقصص هؤلاء الجواسيس كثيرة شائقة ، لأنها لا تكشف القناع فقط عن مآس أو عن مبلغ براعة هؤلاء الجواسيس ومثابرتهم ويقظتهم ، حتى ليصعب على أشد الناس تشككا أن يكتشف خبيئهم ؛ بل بما تحويه كذلك هذه القصص من فواجع أليمة وفضائح

بالغة . وأشد هؤلاء الجواسيس خطراً ، هى المرأة ، المرأة فى باريس . . .

روى صحفى أمريكى القصة الآتية « أذكر من بين المصورين الذين كانوا يعملون فى مجلة الأزياء المعروفة « الفوج » والتى تشرف على إدارتها ، السيدة س. وكانت هذه السيدة التى عملت معنا سنين طويلة بارعة فى تصوير المناظر الطبيعية ، لهذا كانت كثيرة التنقل والتجوال ، وكثيراً ما امتدت رحلاتها إلى دلماشيا وايطاليا والبلقان . وعندما بدأت الأزمة الأخيرة اختفت هذه السيدة ، ولكنى لم أعجب لاختفائها إذ كانت تلك عادتها . .

وفى صباح أحد الأيام طلبت منى الادارة السرية أن أرسل اليها مجموعات من الصور التى نشرت فى مجلتنا ، وفى اليوم التالى زارنى ضابط عسكرى برتبة صاغ ، وأخذ يستعرض معى اسماء المصورين الذين كانوا يعملون معنا منذ بضع سنين . وما كانت أشد دهشتى عند ما اكتشفت ، وللمرة الأولى ، أن جميع هؤلاء من أصل ألمانى أو ممن ينتمون إلى جنسيات غير فرنسية . فلم أحر جوابا ولم أجد للدفاع عن نفسى عذرا ، إلا أن أوجه نظر ذلك

الضابط إلى أن فن « الفوتوغرافيا » أعرق أصلا فى ألمانيا منه فى أى بلد آخر، لذلك لم يكن بد من أن أستعين بهؤلاء المصورين.

وعندما جاء دور السيدة س. وبعد أن راجع الضابط ما معه من بيانات وتقارير، صرح بأن هذه السيدة جاسوسة تبحث عنها السلطات الفرنسية! ولكن السيدة س. تمكنت من الفرار . . . !

* * *

وإذا وقع الألمان على فرنسى ضعيف النفس، كان خطره أعظم وأشد فتكا. والمال هو الوسيلة الفعالة لإغراء هؤلاء الخونة. وإن قضية مارك أوبرت مازالت عالقة بالأذهان. فان هذا الفرنسى الخائن، بالاشتراك مع رفيقته جان مارى موريل، كان فى شديد الحاجة إلى المال الذى أغدقه عليه صنائع النازى فى فرنسا فتمكن من سرقة الرسوم الخاصة ببعض وحدات السلاح البحرى الفرنسى.

وعند محاكمته اعترف أوبرت بأنه باع هذه الرسوم نفسها إلى

السلطات الايطالية . وقد لقى أوبرت جزاءه، فحكم عليه بالاعدام ، كما حكم على رفيقته بالسجن .

* * *

ولكن كم من عشرات من هؤلاء الخونة او الجواسيس ، من رجال ومن ونساء جميلات ، عاشوا سنين طويلة فى الظلام لم يكشف سرهم أحد ؟ حتى وقعت الواقعة ، وضرب العدو ضربته القاضية . . . .

الامس والغد

عند ما هبطت باريس للمرة التاسعة فى خريف عام ١٩٣٨ ، وكانت باريس إذ ذاك تعيش لاهيـة فى بحبوحة ذلك العهد الذهبي الذى خلقته معاهدة فرساى ، ودفعت فرنسا ثمنه بأرواح الآلاف من أبنائها فى الحرب الكبرى ، كنت أحس بأن ذلك النصر السريع كان نكبة على فرنسا ، وأن هـذه النكبة سوف تقع خاطفة فى عشية يوم من الأيام .

ففرنسا التى خرجت منتصرة من ميدان الحرب، والتى خرجت فائزة فى قاعات المؤتمرات الدولية ، وفرنسا التى كانت تتقاسم وحدها مع أمريكا ذهب العالم بأسره ، أصبحت كالرجل الذى دخلت عليه النعمة من كل باب فأخذت عليه أسباب الحذر واليقظة ؛ وهكذا أثملها هذا الفوز وذلك النصر ، فاطمأنت للغـد وعاشت فى أحلامها الذهبية ، زاهدة إلا فيما يشبع فيها شهوة الزهو .

وكنت عند ما أتلفت حوالىّ فى باريس ، وتقع العين على

مظاهر الابتذال الفاضح ، وعندما كنت أشاهد مواطن الضعف فى أخلاق الفرنسى واضحة بارزة لا تحتاج الى دقة أو براعة فى الملاحظة ، وعندما كنت استمع إلى قصص الزائرين وحكايات السائحين الذين كانوا يهبطون باريس لبعض شأنهم ، وعندما كنت أجد نفسى لا أجرأ على أن أطالب بحق الصراخ المشروع خوفا من ان أقف موقفاً تهون فيه الكرامة ؛ عند ذاك كنت أفكر فى ذلك الغد الذى سوف يشرق يوما من الأيام على أرض فرنسا .

لقد كنت أفكر طويلا ، ولكن تفكيرى كان ينتهى الى العجب . وكنت أتساءل : كيف يتسنى لأمة كبرى أن تقف على قدميها ، وتمتد أيديها شرقا وغربا ، وتسيطر على امبراطورية تضم البيض والسود والصفر ، كيف يتأتى كل هذا لأمة لا يتورع رجال المال فيها عن الاحتيال ، ورجال السياسة فيها عن التضليل ، ورجال الحكم فيها عن الرشوة ! بل ولا يتورع فيها الرجل العادى عن النصب المبتذل على الضيف والقريب . أو كما قال ذلك الأمريكى الذى جاء إلى باريس يحمل اليها تذكاراً من

المحاربين القدماء الذين دافعوا عن فرنسا فى الحرب الكبرى ؛ انه كان يظن أن كل فرنسى يقابله سوف يقبّله عربونا لذلك الفضل وتأكيداً لتلك الأخوة القديمة ، ولكنه ما كان أشد عجبه عند ما وجد الباريسى يعامل رجال ذلك الوفد كأنهم عصبة من الأغبياء والبلهاء ويكتفى بالابتسامة المزيفة فى الرد على ماتحملوه من شقة السفر ، ولكنه ما كان ليتورع من أن يحتال عليهم عند ما كان يأتى دور الحساب !

***

وفى أحد أمسية ذلك الخريف(١) كتبت فصلا فى كتابى الذى كنت أعده حينذاك عن باريس(٢)...

« باتت الليلة باريس فى ضباب خانق .

«وعند ماخرجت إلى البولفار فى الساعة الثانية من الصباح، استقبلنى جمع من الشبان صور لهم المرح فى تلك الساعة المتأخرة أن يمثلوا القطار الحديدى فانقسموا صفين وراحوا يشقون

(١) السبت ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٨

(٢) «خريف فى باريس» لم يطبع

البولفار ويملأون المكان بالصفير والنداء .

وكان المنظر طريفـــا مقبولا بعض الشيء استوقف نظر المتسكعين حول المقاهي في هذه الساعة ! أقول كان المنظر مقبولا بعض الشيء ، لأن كثيرا من أساليب المرح هذه لا أعرف كيف يستسيغها الباريسيون ؟ وهي إن دلت على شيء فليس أقل من أنها مظهر من مظاهر الفوضى الاجتماعية !

وقد يقولون إن هذه الفوضى هي نعمة الحرية الطليقة من القيود والتقاليد ، قد يقولون عنها إنهـا سر باريس وهبة من هبات الله تعالى منحهـا أهل باريس ، قد يقولون مايقولون ، ولكن ماهذه إلا معاذير لا تغير وجه الحقيقة.

كنـا في «الكوبول(١)» في ساعة العشاء ، والأبواب مقفلة والناس مابين آكل أو قارىء وإذا بعصبة من الشبان والفتيات تنـدفع من الشارع وتنطلق بين صفوف الآكلين والجالسين بصوت مزعج وهم يتفحصون الوجوه كأنهم يبحثون عن أحد .

---

(١) مقهى ومطعم مشهور في مونبرناس

ثم إذا بهم ينطلقون إلى الطريق ويتسابقون فى إدارة باب المطعم الزجاجى كأى أطفال يلعبون !

وبينا كنا جلوسا هذا المساء فى «الديبو»(١) هبط على الجالسين جندى كأنه خرج لساعته من بعض الخنادق، ووقف فى وسط المكان وأخذ ينادى اسماً بصوت كأصوات الرعاة فى السهول الممتدة ؛ ثم هز رأسه وكتفيه كأنه لم يجد من يناديه ثم انصرف ؟

وجلس إلى جانبنا جمع من الشبان فى صحبة فتاتين فجمعوا المقاعد وخلعوا الستر وراحوا يصفقون ويهللون ويعلقون على كل داخل وخارج ؛ حتى ترك لهم جيرانهم المكان .

ويقابلك أحد هؤلاء فى الطريق ويسلم عليك باشتياق ولهفة كأنه صديق قديم ، فاذا ولى ظهره استغرق فى الضحك والدعابة .

هذه هى الحرية الطليقة عن التقاليد والقيود ، هذه الحرية التى

(١) مقهى معروف فى بولفار سان ميشيل

لا يعرف لها حد تقف عنده؛ قد يقولون عنها انها كذلك، ولكنها مع ذلك لا تبرح لونا من ألوان الفوضى . وقد تكون من ألوانها الزاهية ولكنها الفوضى على كل حال »

٭ ٭ ٭

وإن كانت الشواهد الفردية لا تؤخذ قاعدة للاحكام العامة التى نصدرها على الأمم والشعوب ، إلا أن الباحث الاجتماعى لا يستنبط أحكامه وقوانينه إلا من مثل هذه الشـــواهد الفردية ؛ فهذا البناء الشامخ سرعان ما زلزلته التجربة فانهار من أساسه كأنه صندوق من الورق ، لا لأن النكبة كانت فوق مقدور البشر احتمالها ، بل لأن فرنسا كانت تعيش إذ ذاك بلا قلب ولا عصب .

ففى أول أكتوبر عام ١٩٣٨ رقصت فرنسا ابتهاجاً لانتصار ميونخ .

وفى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩ أعلنت فرنسا الحرب على المانيا

وفى ١٥ يونيه سنة ١٩٤٠ استولى الألمان على باريس .

وفى ٢٢ يونيه ذاته أمضت فرنسا صك الهدنة .

وفى ١٠ يوليه ألغت فرنسا الجمهورية الثالثة، ونصبت بيتان الشيخ رئيساً للدولة الفرنسية، ومنحته الحرية ليضع لها الدستور الذى يرى أن فرنسا جديرة به بعد أن فشلت تجربة سبعين سنة.

وها هوذا بيتان يقص علينا حكاية هذه الفاجعة، ويشخص الداء ويصف الدواء، قبل أن تقضى مضاعفات المرض على ما بقى من جسم هذا العليل المنكود.

«أيها الفرنسيون،

منذ أربعة أشهر أحاقت بفرنسا هزيمة من أشنع الهزائم فى تاريخها. ولهذه الهزيمة أكثر من سبب واحد، وليس هذا السبب خطأً عسكريا معيناً بل إنه نتيجة الضعف وثمرة الأغلاط التى تميز بها النظام السياسى المنقرض.

ولكن هذا النظام كان حبيباً إلى قلوب أكثركم. أما كنتم جد واثقين من أنكم شعب حر يعيش فى كنف حكومة حرة تدعوكم كل أربع سنوات إلى صندوق الانتخاب؟

ولكنكم سوف تعجبون عندما أؤكد لكم أن حكومة فرنسا لم تكن فى يوم من الأيام إبان تاريخها الطويل مغلولة



بيتان يزور معسكرات الشباب الجديد

مغلوبة على أمرها كما كانت فى خلال هذه العشرين سنة الأخيرة، التى استبد بالأمر فيها جماعات اتحدوا عليها وتستروا تحت اسم الأحزاب السياسية والنقابات الاقتصادية، زاعمين أنهم يمثلون الطبقات العاملة فى فرنسا.

« وكانت إذا استبدت طائفة من هذه الطوائف، راحت تحارب الأقلية المهزومة حتى تضعضع هيكل الدولة، وكان أن التجأت البلاد إلى الاتحادات القومية لدرء ذلك الخطر، ولكن العلاج كان وهما باطلا. فليس الجمع بين هذه الهيئات المتنافرة بالأمر الذى يخلق وحدة حقيقية، وليس بمجموع الرغبات الطيبة الصالحة بالشيء الذى يخلق إرادة فعالة صحيحة؛ لأن دم الشعب تسمم بهذا التذبذب السياسى وبهذا الرق الاجتماعى.

« لقد كان كل شيء يصرخ بأن هذا النظام أضحى عقيما لا يؤتمن عليه فى الشدة، إلا إذا وضعت السلطة فى يد دكتاتورية. فأولئك الذين عاشوا سجناء لهذا النظام الداخلى، كانوا أعجز من أن يضعوا لفرنسا سياسة خارجية جديرة بها. لهذا كانت البلاد

سائرة قُدُماً نحو ثورة سياسية عملت الحرب والهزيمة على تقريب ساعتها ليس إلا .

« لقد كانت تلك الوطنية الخرقاء ، وتلك الرغبة فى السلام التى خلقها العجز والضعف ، لقد كانت تلك السياسة سبباً لأن تقود البلاد إلى الهاوية بعد خمسة عشر عاماً من ذلك النصر الذى كان يجب أن يفرض علينا اليقظة . فى يوم من أيام شهر سبتمبر عام ١٩٣٩ ، أعلنوا الحرب باسم فرنسا دون أن يستشار مجلسها النيابى ، تلك الحرب التى كان مصيرها الفشل منذ يوم إعلانها ؛ فكنا أعجز من أن نتنكب طريقها ، وأعجز من أن نستعد لها .

« فعلى اطلال هذا الخراب ، جئنا اليوم لنبنى صرح فرنسا مرة أخرى . وإن هذا النظام الجديد سوف لا يترحم على اخطاء ذلك العهد فى اية صورة من الصور أو فى أى وضع مستتر من الأوضاع ؛ تلك الأغلاط التى كلفتنا ثمنا غاليا . ولن يكون لهذا النظام صفة مشروع إصلاح خلق فقط ، ولن يكون رد

فعل لحوادث عام ١٩٣٦(١) ، ولن يكون كذلك تقليداً أعمى لبعض التجارب السياسية الأخرى .

« ولا ريب فى أن لبعض هذه التجارب السياسية أساسا معقولا وجمالا جذابا ، ولكن على كل شعب أن يتخذ من النظم ما يتفق وطبيعته وآماله الوطنية . « فنظامنا الجديد » سوف لا يكون إلا فرنسيا . وإنه ليحزننى أن تدفعنا الضرورة القاسية فى ساعة الهزيمة إلى ثورة كنا لا نعى اهميتها عندما لبسنا أكاليل النصر القديمة ، وعندما كان السلام يرفرف على ربوعنا .

« ولنترك هزيمتنا جانبا ، ولنذكر أن المهمة التى تضطلع بها فرنسا اليوم مرتبطة إلى حد كبير بالهزائم أو الانتصارات التى تقع أو التى يحرزها اولئك الذين كانوا أعـداء فرنسا أو أصدقاءها بالامس . فنظامنا الجديد ، إذا اريد به أن يكون نظاما قوميا حقا ، يجب أن يتحلل من تلك الصداقات أو العداوات التى دعوناها بأنها « تقليدية » والتى كانت تتبـدل وتتغير فى

(١) وهى الخاصة بانشاء جبهة متحدة من الشيوعيين والاشتراكيين لمحـاربة الدكتاتورية .

خلال تاريخنا والتى كان الغنم الاكبر فيها لأصحاب رؤوس الاموال الدوليين والمتكسبين على حساب معدات الحرب .

« فنظامنا الجديد سوف يعمل بادىء ذى بدء على حماية وحدتنا الوطنية ، بأن نقوى أوثق الصلات بين فرنسا وممتلكاتها فى ما وراء البحار . وأنه سوف يعمل على حماية ذلك التراث الاغريقى واللاتينى ، وعلى الدعاية له فى العالم أجمع ، وانه سوف يشجع الروح الوطنية ، التى وقد خلت من شوائب الأنانية ، سوف تساهم فى قضية التفاهم العالمى .

« وإن هذا التعاون سوف يشمل كل ناحيـــة من نواحى الحياة ، وسوف يشمل جيراننا بلا استثناء . وأيا كانت خريطة أوربا أو العالم بعد هذه الحرب ، فان فرنسا تعلم علم اليقين أن مسألة العلاقات الفرنسية الألمانية التى كانت تُعالج بغير العناية الواجبة فى الماضى ، سوف تكون كما كانت عاملا رئيسيا فى تصوير مستقبلها .

« فألمانيا وهى فى فجر انتصارها على قواتنا ، لها أن تختار بين ذلك السلام التقليدى المبنى على الاغتصاب ، وبين الصورة الجديدة للسلام التى ندعوها التعاون ؛ فبدلا من تلك المآسى

التى قد تتولد من المنازعات أو الثورات المسلحة التى قد يتمخض عنها مثل هذا السلم التقليدى ، قد تختار ألمانيا سلاما عادلا حقيقيا لا سلاما مبنيا على ارادة المنتصر وحده . نعم إن الاختيار من حق المنتصر أولا ، ولكنه من حق المهزوم كذلك . لأنه اذا أُرتجت جميع الأبواب فى وجوهنا فسوف نتعلم الصبر فى إحتمال الآلام ، حتى إذا ارتفع أمل جديد أمام عيوننا فسوف نعرف كيف نثور على مذلتنا وعلى احزاننا وعلى خرابنا . فالمنتصر الذى يعرف كيف يعالج انتصاره يساعدنا على أن ننسى الهزيمة التى لحقتنا .

« إن النظام الجديد سوف يعترف بالفروق الاجتماعية ، ولن يؤسس على تلك الفكرة الخاطئة عن المساواة الطبيعية بين الناس ؛ ولكن المساواة فى العمل ستكون دعامة هذا النظام ، فلكل فرنسى الحق فى أن يثبت استعداده وامتيازه . فالعمل المضنى والكفاءة الحقة ستكونان أساس النظام الفرنسى الجديد . والنزاع بين الطبقات الذى قضى على حيوية هذه الامة ، لا يمكن القضاء عليه إلا إذا تسنى لنا القضاء على الاسباب التى كانت تحفز

كل طبقة للثورة فى وجه الأخرى. لهذا سوف نعمل على احياء الارستقراطيـة العملية، تلك التى جاهد رجال الحكم المنقرض سنين طويلة للقضاء عليها.

« وقد يفزع بعضكم من أن إحياء نظام الطبقات هذا سوف يقضى على الحريات التى بذل أجدادكم دماءهم فى سبيل الحصول عليها. ولـكن عليكم أن تثقوا بما أقول: إن سلطان الدولة إذا كان حقيقيا، فهو خير ضمان لحماية الحريات الفردية التى قد يتحدد ضدها بعض ذوى الأغراض والمصالح. ان شعباً لا يعتبر حراً طليقاً ولو كان له حق الانتخاب، إذا كانت الحـكومة التى يرفعها إلى منصة الحكم تعيش سجينة فى ظل مثل هذه الظروف.

« وماذا تعنى كلمة « الحرية » هذه فى عام ١٩٤٠، لرجل لا يجد عملا، أو لموظف صغير حلت به الضائقة، إلا أنها الحرية فى أن يتألم فى وسط أمة مهزومة مغلوبة على أمرها . ؟

« إننا فى الحقيقة لن نفتقد إلا بعض المظاهر الخادعة للحرية أما اللباب فسوف نحتفظ به. وما التاريخ إلا حكاية سلطان استحال إلى استبداد أو حرية استحالت إلى فوضى.

وإن الساعة قد دقت لكى تقضى فرنسا على هذا التذبذب والاضطراب بأن تجمع بين السلطان فى الحكم وبين الحرية .

« وسوف لا يُبنى هذا النظام الاجتماعى الجديد على التصريحات النظرية ، ولكن سوف يكون أساسه التشريعات العملية السريعة . فكل فرنسى صانعاً كان ام فلاحا ، إخصائيا كان أم عاملا ، سيحمل حول عنقه واجب العمل ، فاذا ضحى بهذا الواجب فسيضحى بحقه فى الجنسية الفرنسية . فلكى يحتفظ كل فرد بهذا الحق ، ولكى نرعى قيام كل فرد بذلك الواجب ، علينا أن نثور ضد النظام الاقتصادى القديم .

«فاذا ما انقضت هذه الفترة الاعدادية ، ليتسنى لنا فى خلالها إنشاء مراكز إقتصادية رئيسية سوف يجد فيها كل فرد مكانه اللائق والأجر المناسب لأستعداده الحقيقى . ولو ان الدعامة الاقتصادية فى فرنسا لا تقوم على الصناعة بل على الفلاحة ، فان هنالك أسساً اقتصادية عامة يمكن تطبيقها على جميع نواحى النشاط فى فرنسا . فنقابات العمال ستُعنى بكل ما يمت بالحرفة الخاصة بها ولن يمتد نشاطها إلى أكثر من العناية بشئون العمال

الفنية والأدبية، بما فى ذلك التأمين الاجتماعى للمتقدمين فى السن، والقضاء على التنافس غير المشروع ثم القضاء على الاضراب، فضلا عن جعل التحكيم إلزامياً لحل مشاكل العمال.

« فالخلل فى ذلك النظام الاقتصادى كان يعادله الخلل فى نظامنا السياسى، الذى كانت تبدو عليه مظاهر الحرية وهو خلو منها، كما كانت حريتنا الاقتصادية لعبة فى يد أصحاب رؤوس الأموال. فكان على الدولة أن تتداخل فى كل فرصة وفى كل وقت. لهذا نشأت تلك الظاهرة الاقتصادية العجيبة، مشهد ملايين الرجال المحرومين من ضروريات الحياة إلى جانب أكوام من المنتجات التى كثيرا ما كانت تتلف قسراً لا لغاية سوى أن تخلق توازناً بين أثمان المواد الأولية. فلما واجهت الأمم الأخرى مثل هذه الحرية الاقتصادية المطلقة، لم تر بدأً من أن تبنى لنفسها أساسا إقتصاديا جديدا. فعلينا أن نحتذى خطى هذه الأمم بكل ما أوتينا من جهد وصدق عزيمة، فنظامنا الاقتصادى يجب أن يكون تحت سيطرة الدولة ورعايتها، كما يجب أن نحمى المصلحة الفردية من استبداد رؤوس الأموال.

« ان هذا النظام سوف لا يعترض حرية الأفراد ، إلا إ
استخدمت هذه الحرية لبعض الأغراض الذاتية أو السياسية
فالمصلحة الوطنية يجب أن تسيطر على كل مصلحة ولن نتوا
فى تطبيق هذه المبادىء لاسيما فى خلال هذه الفترة الاستثنائية
من استخدام القوة .

« أيها الفرنسيون ،

ان هذه هى المهمة التى أدعوكم إليها . علينا أن نقيم ب
الوطن من جديد ، وانى سوف أعمل معكم فى القيام بهذا الواجب .

وان الدستور الجديد سيكون مظهرا صحيحا للنهضة ال
بدأت بالفعل . ولا تقوم النهضات بالقوانين والمراسيم فقط
ولكن إذا برهنت الأمة على أنها فى حاجة إليها، وإذا عمل الشعب
فى المساهمة مع حكومته فى الاضطلاع بهذا الواجب .

وسوف أدعوكم قريبا لتلتفوا حولى وانتم عاقدين الخناص
لنتعاون على تحقيق هذه النهضة ، وسوف لا نعفو على من يتردد
وسوف نحطم كل قوة تعترض سبيلنا ، حتى لا نرى فوق أرض
فرنسا إلا قوة واحدة متماسكة تجمعها رابطة الأخوة الوطنية .

« فيليب بيتان »

مطبعة كوستا تسوماس وشركاه تليفون ٤٤١١٨

الناشر
دار الكتب الأهلية
ميدان ابراهيم باشا بمصر
تليفون ٤٩٥٦١